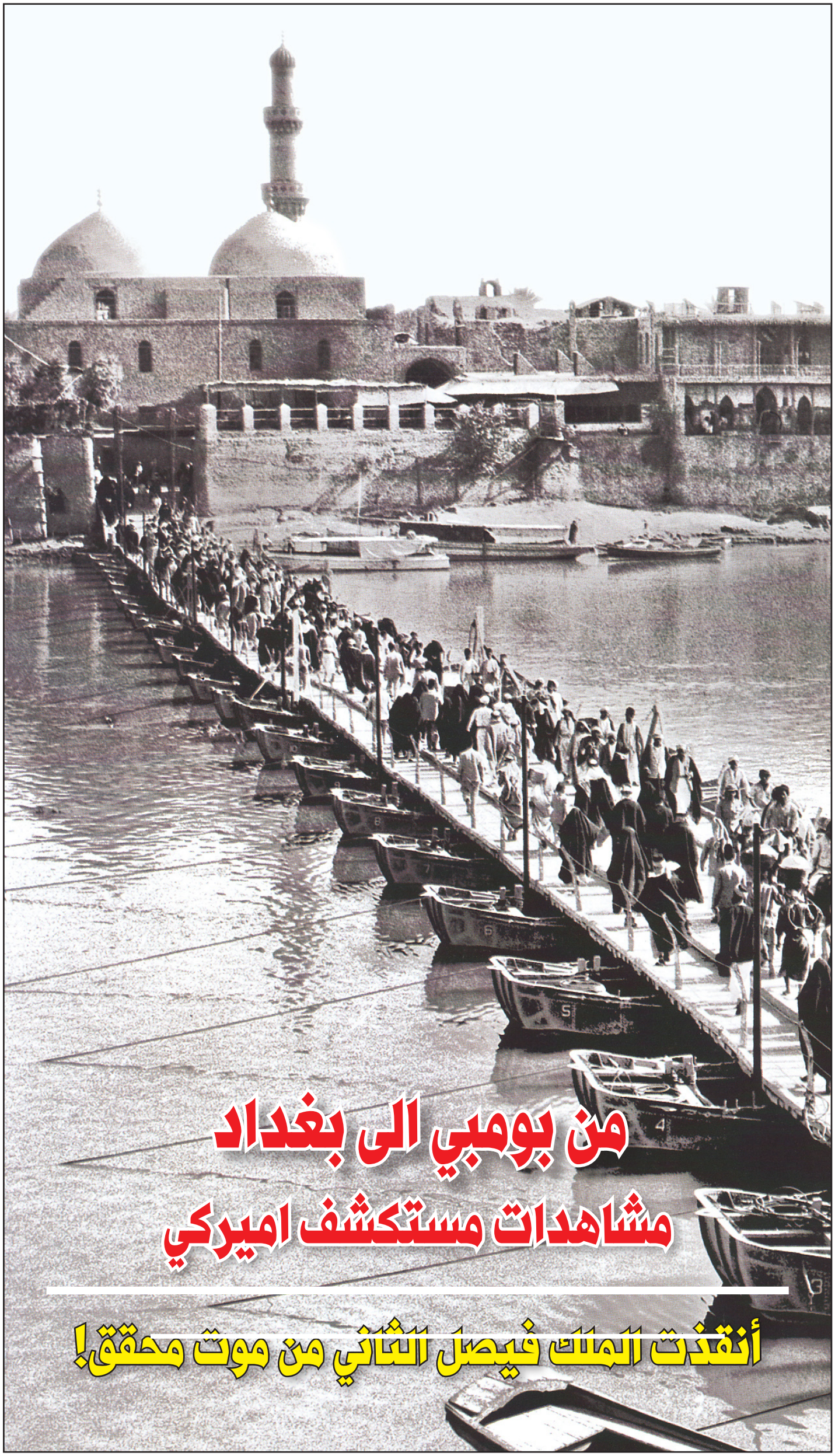

من بومبي الى بغداد
مشاهدات مستكشف اميركي

أنقذت الملك فيصل الثاني من موت محقق!

ثقافية

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

العدد (2608) السنة العاشرة
الاثنين (1) تشرين الاول 2012

WWW. almadasupplements.com

10

جعفر الخليلي
بين الصحافة والثقافة

الصناعة في العراق .. البدايات.. وايام زمان

ان مجئ الاتحاديين الى الحكم منذ سنة ١٩٠٨ هو الذي ادى الى تحريك السياسة الاقتصادية العثمانية بشكل واضح ، فقد حاولوا إصلاح مصادر الدخل العام الحكومي ، ولأنهم ادركوا انه من العبث أن يظل الخراج والضرائب مصدر التمويل الاساس للدولة – أي تعيش في اقتصادها على الريع – طالما استمر الاختلال الكبير في الميزان التجاري وميزان المدفوعات الناتج عن كون الدولة العثمانية كانت سوقاً لتصريف البضائع الأوربية ومصدراً لمواد الخام لها ، مما أفضى إلى زيادة العجز المالي للدولة ، لذلك سعوا لاشراك الأهالي

د. محمد جبار ابراهيم

بشكل أكبر في المسؤولية الاقتصادية وتوسيع القطاع الخاص لاسيما قطاع الصناعة ، فاعفوا الالات المستوردة من الرسوم الكمركية . وفي سنة ١٩١١ لم يكتفوا باستثناء منتوجات الصناعة المحلية المعدة للتصدير من الرسوم الكمركية ، بل رفضوا فرض اي اسعار معينة عليها ، وأصبح أمر البت في طلبات الموافقة على المشاريع المرسلة لهم من الولاة من شأن الوزارات المختصة في اسطنبول، ورفعوا عن كاهل ممثليها عبء الحضور الى العاصمة العثمانية . وحاولوا معالجة امر الفساد الذي ابتليت به المؤسسات البيروقراطية وانعدام الكفاءة فيها من خلال "قانون التنسيقات" ، على الرغم مما اثاره من اعتراضات ، واهتموا ايضا بتطوير طرق النقل البرية والنهرية . وهكذا غدت الدولة العثمانية اصلح لترجيح خياراتها الاقتصادية بصورة مرنة ، فظهرت في عهد الوالي نجم الدين منلا (١٩٠٨-١٩٠٩) الزوارق التي تسير بمحركات في نهر دجلة ، وقد شجع سكان بغداد على الاستفادة من ذلك عن طريق تأسيس شركة محلية للنقل النهري ، لكي تكون من اوائل مكاسب هذه الروحية الجديدة . وفي ظل هذه الاجواء حدثت نقلة نوعية في مجال المواصلات حينما تأسست شركة اهلية للسيارات لنقل الركاب بين بغداد وبعقوبة في سنة ١٩١٢ ، كانت تقطع المسافة في اربعين دقيقة فقط ، واجرة الراكب بلغت خمسة فرنكات.

وفي السابع والعشرين من تموز العام نفسه تم وضع حجر الاساس لـ"سكة حديد بغداد" الذي كان من المقرر أن يخترق الولايات العراقية . وفي خلال اقل من عامين استورد الالمان اكثر من ٤٠ الف طن من المواد والمعدات اللازمة لتنفيذ المرحلة الاولى من هذا المشروع ، الذي انجزوا منه قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى ٧٤ ميلاً ربطت بين بغداد وسامراء ، كانت كلها من الدرجة الاولى . نشرت جريدة "زوراء" لسنة ١٩١٣ ما يؤكد تصميم الاتحاديين على الشروع باستكمال خطوات منهجهم الاقتصادي التي بدأوها في حكومتهم الاولى ، لاسيما بعد انتهاء الحرب الطرابلسية (١٩١١-١٩١٢) وحرب البلقان (١٩١٢-١٩١٣) ، فقاموا بتخويل الولاة حق : "اعطاء الاذن بانشاء الترامواي المحجات الحديدية التي تسحبها الدواب ، او التي تسير بالبخار او بالضياء الكهربائي ، والاذن باجراء التنويرات بالضياء الكهربائي او بالغاز الهوائي ، وتوزيعه بالقدرة الكهربائية ، واعطاء الامتياز باسالة الماء الصالح للشرب ، واعطاء الرخصة بتشغيل العجلات سواء كانت بخارية اوتومبيل ، او ضخمة اوتوبوس ، او عمومية اومينوس واعطاء الاذن بتأسيس المعامل للصنايع المختلفة في المملكة [كذا] والقصبات بشرط ان تعود منافعها للبلديات ، و (تكون) شروطها موافقة للقواعد المتخذة في الدولة ، ومددها لا تتجاو ٤٠ سنة" . إن الجديد في الاشراف الحكومي على حرية الافراد والشركات الخاصة ، انه كان يتم عبر الولاة بشكل كامل مما يؤكد ان الشكل الاقتصادي الرسمي الذي تبناه الاتحاديون كان اقل بيروقراطية من السياسة الاقتصادية السابقة . ويجب الانتباه الى انه ما زال الاصل في هذه السياسة هو محاولة انعاش قوة الدولة الاقتصادية ، وهي وان غدت اكثر تساهلا لكن الاتحاديين رفضوا في الواقع التنازل عن حق تدخل الدولة في شؤون القطاع الخاص ، وطرحهم هذا لم يكن كافيا للتوفيق بين هدفهم المركزي ورغبتهم بتوسيع القطاع الخاص ، مما يكشف النقاب عن السبب الرئيس الذي كمن وراء تفضيل عوائل بورجوازية عراقية مهمة مثل عائلة ساسون وعائلة محمود الشابندر انشاء استثماراتها الصناعية الحديثة ، المتضمنة مصانع النسيج وشركة التنوير الكهربائي على التوالي في مانجستر ولندن مطلع القرن العشرين .

معمل العبخانة

لذلك على الرغم من تلك البوادر الحكومية لم تظهر في عهد الاتحاديين اي مشاريع اهلية صناعية حديثة تستحق الذكر في الولايات العراقية الثلاث ، باستثناء شركة صغيرة للحياكة تأسست في العام ١٩٠٨ ببغداد بعد اعلان الدستور ، استوردت لاعمالها انوال يدوية حديثة اوربية ، لكنها سرعان ما اقفلت ابوابها لتخلي شركاء صاحب الشركة رفعت افندي عنه ، والذي عرفته جريدة "صدى بابل" بانه مدير سابق لمكتب الصنائع ، مما يدلل على ان افتقار اصحاب الخبرات الحرفية الى الاموال يصلح لان يكون اهم الاسباب المؤدية الى عدم استثمار خبراتهم المهنية في المشاريع الصناعية الرأسمالية . ومع ان السبب الرئيس لاضعاف فئة الحرفيين بتلك الصورة هو المنافسة الاوربية غير المتكافئة لها ، لكن الاخيرة استفادت كثيرا من الظروف والعوامل المضادة الداخلية المحيطة بنشأة الفئة الصناعية المحلية ودورها . ونضيف هنا الى العوامل السابقة لمثل هذا التحول عاملين آخرين :

الاول هو دور الفيضانات وموجات وباء الطاعون ، لاسيما الاخيرة فقد مرت بالعراق خلال المدة ١٦٨٩-١٨٧٧ خمسة عشر موجة من هذا الوباء ، وقعت اغلبيتها الساحقة ببغداد ، إذ قضت هذه الكوارث على العديد من اصحاب الحرف والصناعات ، بحيث انقرض بعضها ، وقد اشار فريزر الى آثار طاعون١٨٣١ الاقتصادية على النحو التالي : "... جميع الصناع وارباب الحرف تقريبا قد أتى عليهم الموت فازالهم من الوجود . وانك في هذا اليوم لو اردت ان تحصل على بعض الحاجات المصنوعة ، التي كانت تشتهر بصناعتها هذه البلاد ، يقال لك : آه ، ان ذلك لا يمكن الحصول عليه الان لان جميع من كانوا مختصين بصنعه قد ماتوا . ولذلك فقد انمحت من هنا صنعات معروفة باكملها ..." .

أما الثاني فهو نظام الاصناف الذي عمل على عزل الولايات العراقية عن الاخذ بالتقدم

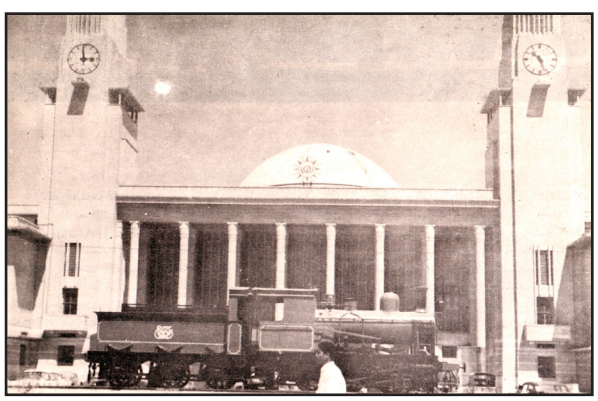

التقني واساليب الانتاج الجديدة ، ولقد اجبر حجم الضرر الذي الحقه هذا النظام بتقاليده المحافظة المهنية الاحتكارية بفئة الحرفيين ، الدولة العثمانية على الغائه سنة ١٨٦٠ ، دون ان يترك ذلك تأثيراً كبيراً على الانتاج الحرفي بسبب وطأة منافسة البضاعة الاوربية .

يرى مكسيم رودنسون ان بعض الولاة العثمانيين حاولوا أن يقوموا بمهمة الريادة في الصناعة الحديثة ، لتعليم الرأسماليين المحليين بالمثل الحي . وكانت المشروعات الصناعية الحكومية تتضمن العباخانة في بغداد التي انتجت القطنيات والاقمشة العسكرية ، كما كان في بغداد ورشة لاصلاح السفن ، واخرى لصيانة المحركات البحرية والمدافع والبنادق بالبصرة . وكان لـ"الادارة العمانية – العثمانية" حوض سفن في البصرة . وجاء معظم العمال في تلك المشروعات من المجندين العسكريين ، وكان المجندون العراقيون سوقاً مضمونة لتصريف منتجاتها . اذن هذه المؤسسات كرست لخدمة الحاجة الحكومية الصرفة ، ولقد اتبع قسم من هذه المشاريع الاسلوب التجميعي في محاولة لتقليد الصناعة الغربية ، فعندما زار السائح الامريكي وليم بيري فوك ورشة اصلاح السفن ، او الترسانة ببغداد سنة ١٨٧٤ ، عرض عليه ملاحظ العمل نماذج من اعمال العمال العراقيين، فلم يجد فرقا بينها والقطع المصنوعة في اوربا .

لم يكن ما شاهده وليم بيري فوك هي الصورة الوحيدة التي يمكن ان تؤكد وجود مهارات صناعية عالية لدى البعض من الاهالي ، ففي اواخر القرن التاسع عشر كان ببغداد حداد ميكانيكي اسمه جوزيف هالوكا تمكن من بناء بدائن لخمس سفن بخارية لخطي "لنج" و "الادارة العمانية ¬– العثمانية" النهريين وعلى الرغم من انه كان اميا ، وغير قادر على رسم تخطيط للسفن يبدو انه استطاع بناء هياكل السفن والواحها بالنظر فقط ، بل انه تمكن من بناء محرك ذات مرة . وكانت توجد مواهب مشابهة في السليمانية ، حيث استطاع الصناع المحليون من صنع عشر الى عشرين بندقية في السنة حسب الانموذج المارتيني – بيابودي . مع ذلك فان معضلة الافتقار الى المال فوتت فرصة تحويل هذه الامكانات الى احد ركائز الاستثمارات الرأسمالية المرجوة . وقد حملت جريدة "زوراء" اصحاب الاموال جانبا من مسؤولية ذلك ، فانهم ، كما تقول لم يساهموا في مشروع سكة حديد خانقين – بغداد – كربلاء ، وانتقدت خوفهم وترددهم الذي منعهم من الدخول في الاستثمارات الصناعية . وحاولت مجلة "المنار" المصرية ترغيب التجار العراقيين للاهتمام بتأسيس مصانع النسيج تلبية لدعوة مكتب جريدة

"وكيل الغراء" الهندية في بغداد وقالت مستغربة "ان التجار يرسلون الصوف في كل سنة بمقدار ملايين الجنيهات الى لندرا (لندن) ومارسيليا ، وبعد نسجه فيها يرجع للبلاد فيبيعه هؤلاء التجار باثمان غالية جدا للوطنيين" . لكن لم تلق مثل هكذا دعوات اي صدى لدى اصحاب الأموال في العراق ، لذلك لا غرو ان طالب احد نواب الموصل في مجلس المبعوثان العثماني في جلسة ٢ حزيران سنة ١٩١٤ حكومة الاتحاديين باجبار الاغنياء على تأسيس شركة صناعية مساهمة.

وفي ضوء ما اسلفنا يمكن التوصل الى سبب اخر لعدم تطور الصناعة في الولايات العراقية الثلاث ، وهو ان البورجوازية العراقية النامية المؤلفة من الفئات الزراعية والتجارية والربوية والعقارية والصناعية كانت تركيبة مختلطة ، غير متكاملة التجانس ، بل ومتضاربة المصالح الى حد ما ، مما يعني ان الشريحة التي كان بالامكان ان يكون لها اهم دور في عملية التحديث ، كانت في الوقت نفسه اضعف شريحة اجتماعية .

الوزارة المدفعية الأولى ومشكلة نهر الغراف

خالد خلف داخل

الملك فيصل الثاني ويظهر في الصورة جميل المدفعي

الفترة التي تخللت استقالة الوزارة الكيلانية الثانية في ٢٨/ت٢/١٩٣٣ من اهم الفترات السياسية الحرجة في العراق. حيث قدم رشيد عالي الكيلاني استقالة وزارته بعد ان شعر ان الخطط التي وضعتها الوزارة للاصلاحات المهمة يحتاج تنفيذها الى اتفاق تام بين السلطتين التشريعية

والتنفيذية ورغب ان يفسح المجال امام الشعب للاعراب عن رايه والاحباط الذي عاشته وزارته الثانية نظرا لما ادته وزارته الاولى من خدمات ممتازة اتجهت الانظار الى وجوب اختيار شخصية محايدة لتكوين وزارة تخلف وزارة رشيد عالي الكيلاني فكلف جميل المدفعي رئيس مجلس النواب وقتها لتكوين وزارة جديدة وقد اشترط المدفعي أن يشترك في وزارته نوري السعيد وناجي شوكت لضمان دوامها ولم يكن عسيراً على جميل المدفعي ان يختار اعضاء وزارته بعد ان قرر نوري السعيد وناجي شوكت الاشتراك معه في تحمل اعباء المسؤولية فانجز ذلك بعد برهه قصيرة وصدرت الموافقة الملكية في ١٩٣٣/٩/٢بتعيين جميل المدفعي رئيسا لمجلس الوزراء وقد اختار وزراءه فكان ناجي شوكت وزير للداخلية ونصرت الفارسي وزيرا للمالية وجمال بابان وزيرا للعدلية ورستم حيدر وزير للاقتصاد والمواصلات وصالح جبر وزيرا للمعارف ونوري السعيد وزيرا للخارجية ووزيرا الدفاع وكالة ولما كان جميل المدفعي رئيس مجلس النواب فقد قدم استقالته كونه تولى رئاسة الوزراء وجرى انتخاب رشيد الخوجة خلفا في رئاسة المجلس ثم وقف المدفعي في مجلس النواب والقى منهاج وزارته فلم يتطرق فيه الى موضوع المعاهدة العراقية – البريطانية ثم عرض منهاج الوزارة وبين سياستها الخارجية حيث المحافظة على اوامر المودة والصداقة القائمة بين العراق والدول الاخرى اما السياسة الداخلية فهدفها تقوية روح الطمأنينة في نفوس ابناء الشعب واجهت الوزارة المدفعية الاولى مشكلتين كانت اقوى من الوزارة الاولى مع الشراكة الاجنبية للتنوير التي كانت تجهز مدينة بغداد بالكهرباء والاضراب العام التي شهدته العاصمة مما ادى الى انقطاع الكهرباء في بغداد وقرار مجلس اتحاد نقابة العمال باعلان المقاطعة بصورة رسمية وعينوا يوم الخامس من شهر كانون الاول ١٩٣٣ موعدا لذلك وجرت مفاوضات مع الشراكة تناولها في حلقات سابقة ماكادت هذه المشكلة ان تنتهي حتى بدات مشكلة اخرى كانت اصعب مما ادى الى استقالة الوزارة وهي مشكلة نهر الغراف لاقامة ناظم وبناء سد امام فتحته لتامين جريان المياه فيه صيفا وشتاءا حتى صرح الملك فيصل الاول في احدى خطبه لامشروع قبل الغراف وقبل ان تتكون الوزارة المدفعية الاولى تم التفاهم على وجوب الشروع في تنفيذ مشروع الغراف تحقيقا لرغبة الملك فيصل الاول وماكاد يعلن هذا المشروع في وزارة جميل المدفعي في المناقصة الدولية حتى احتج وزير المالية نصرت الفارسي مدعيا انه بصفة كونه وكيل بيت المال لايرى من صلاحية وزير الاقتصاد رستم حيدر ان يعلن قبل ان يتصل بوزير المالية ويتاكد من وجود المخصصات المقتضاة للمشروع ثم ادعى نصرت الفارسي ان تسليح الجيش العراقي اهم من مشروع الغراف في نظره ولذا يجب تقديم التسليح على بناء سد على نهر الغراف وقد ايد نصرت الفارسي بذلك وزير الداخلية ناجي شوكت حيث اعلن انه يجب دراسة مشروع ضبط مياه دجلة باقامة مشروع الثرثار اولا لحفظ بغداد من الغرق ثم النظر في مشروع احياء الغراف كما دخل في تاييد اقتراحه نوري السعيد بينما ايد صالح جبر وزير المعارف راي رستم حيدر وزير الاقتصاد بالاسراع بتنفيذ مشروع الغراف فاعلن وزير الداخلية ناجي شوكت انه يستقيل هو ووزير المالية نصرت الفارسي اذا اصر وزير الاقتصاد رستم حيدر على وجهة نظره اما نوري السعيد فاوضح انه متعب ويريد ان يستريح فحاول الملك غازي ان يوفق بين المتخاصمين حيث جمعهم فكان الاصرار من الجميع على رايهم فقدم جميل المدفعي استقالته في ١٣/٢/١٩٣٤ حيث استمرت اربعة اشهر فقط.

عندما اصبح جلال بابان عضواً في مجلس الاعمار العراقي

رجاء زامل الموسوي

بعد زيادة عوائد النفط على اثر تغيير اتفاقيات النفط ، بدأت الأفكار تطرح حول كيفية استثمار هذه العوائد ، وقدمت الاقتراحات الكثيرة لكيفية صرف هذه العوائد ، فاستقرت الأراء على انشاء مجلس للأعمار ، لأستثمار هذه الموارد في طرق معينة ذات طابع عمراني ، لتكون المشاريع بعد انجازها مورداً مستديما للبلاد ، ومن شأنها ان ترفع مستوى حياة الشعب ، وتخدم الانتعاش الاقتصادي والاجتماعي والزراعي في البلاد .

وبعد اعداد لائحة قانون مجلس الاعمار، رفعت الى مجلس الوزراء ، وبعد موافقته عليها، رفعت الى مجلس الامة للمصادقة عليها ،وقد قابلها المجلس بالترحاب ، وبعد مصادقته عليها صدر قانون مجلس الاعمار في ٢٥ نيسان ١٩٥٠ برقم ٢٣ لسنة ١٩٥٠.

وبعد صدور القانون المذكور ، تباحث رئيس الوزراء توفيق السويدي وصالح جبر ، حول الاشخاص الذين تتوفر فيهم الصفات والمؤهلات اللازمة لعضوية المجلس ، اذ اقترحت بعض الاراء ان يكون العضو من المثقفين ثقافة عصرية لكي يكون على اتصال مستمر بالتيارات الفكرية والنظريات الجديدة ، والتطورات والتجارب المستحدثة في عالم الاقتصاد والتنمية والاعمار ، وهذا يتطلب أن يكون العضو ملماً باحدى اللغات الاجنبية ، وان يكون من خريجي احدى الجامعات الاجنبية ، ومن ذوي الخبرة والتجارب ، هذا فضلاً عن الصفات الاخرى كالامانة والاستقامة ، والسمعة الطيبة ، اما الآراء الأخرى ، وخاصة الاوساط السياسية ، فقد اقترحت ان يكون العضو من الشخصيات ذات الوزن السياسي .

وجدير بالذكر ان وزارة توفيق السويدي استقالت في اواسط ايلول ١٩٥٠ ولم تبت في موضوع اعضاء المجلس بصورة نهائية ، وعندما الف نوري السعيد وزارته الحادية عشرة في ١٦ ايلول ١٩٥٠ ، والتي خلفت الوزارة المستقيلة ، اخذ على عاتقه اختيار اعضاء المجلس ، ففي ٩ تشرين الاول ١٩٥٠ اصدر قراراً حول تعيين اعضاء المجلس الاجرائيين الستة .

ونص قانون المجلس على تعيين الاعضاء الاجرائيين بقرار من مجلس الوزراء على ان يكونوا من غير الموظفين او اعضاء في مجلس الامة ، وفي ٩ تشرين الاول ١٩٥٠ قرر مجلس الوزراء تعيين جلال بابان عضواً اجرائياً في المجلس ، وبناءً على ذلك فقد استقال جلال بابان من عضوية مجلس النواب في ٢٢ تشرين الاول ١٩٥٠ ، إذ لا يجوز جمع العضوية في المجلسين بوقت واحد بناءً على ما يحتمه قانون مجلس الاعمار الخاص .

وفي ٣ تشرين الثاني ١٩٥٠ صدرت الارادة الملكية بتعينه عضواً اجرائياً في مجلس الاعمار .

وجاء اختيار جلال بابان لعضوية المجلس بناءً على ما امتاز به من مميزات تمثلت بكونه ضابطاً عسكرياً متقاعداً ، ووزيراً سابقاً ، فضلاً عن تقلبه في الوظائف الادارية والسياسية ، مما يدل على ان تعيينه لم يبنَ على الاسس السياسية فقط .

حددت واجبات العضو الاجرائي في المجلس بالتعاون مع الاعضاء الاخرين لوضع منهاج الاعمار وتنفيذه بعد اقراره من مجلس الامة ، وكذلك التصويت على القرارات التي يتخذها المجلس .

وقد كان لبابان مواقف يتحتم علينا ذكرها ، فبعد تأسيس المجلس ، وقبل انعقاد اجتماعه الاول ، انصرف جلال بابان لأداء اعماله في المجلس ، فبدأ بدراسة المشاريع التي عُهد للمجلس القيام بها في المستقبل .

وخلال تنفيذه المنهاج الاضافي للمجلس جرت محاولات لوضع منهاج جديد ، وبعد استحداث وزارة الاعمار بموجب القانون رقم ٢٧ لسنة ١٩٥٣ ، كان من الضروري وضع منهاج اخر يكون اكثر انسجاماً مع القانون الجديد ، فوضع مشروع المنهاج الجديد والذي امده سبع سنوات ، الا ان المجلس لم يبت ، وعندما الفت وزارة فاضل الجمالي في ايلول ١٩٥٣ ، الف المجلس لجنة من بين اعضائه ضمت كلاً من جلال بابان ، وعبد الجبار الجلبي ، والعضو الامريكي نلسن ، وكان مهمتها اعادة النظر في مشاريع الري الواردة في المنهاج المقترح في ضوء نتائج الدراسات الجديدة التي قام بها المجلس ، وقد وضعت اللجنة بالحسبان الجهود المبذولة التي اشار اليها خطاب العرش ، لوضع منهاج جديد للاعمار يستند الى خطة اقتصادية علمية شاملة متوازنة وموحدة .

وعقد جلال بابان واعضاء المجلس الاخرين الكثير من الاجتماعات مع اعضاء مجلس الوزراء ، وذلك لتثبيت التخصيصات المالية لهذا المنهاج ، وعملت اللجنة على وضع هذا المنهاج خلال عام ١٩٥٤ ، وبعد الانتهاء منه حددت الاطار الزمني له بالسنوات ١٩٥٥ – ١٩٥٩ ، واصبح نافذ المفعول ابتداءً من ١١ نيسان ١٩٥٥ . ووجه المجلس اهتمامه لمشاريع الري وانشاء الخزانات ، اذ الف لجنة خاصة ضمت كلاً من جلال بابان ، وعبد الجبار الجلبي ، ومدير العشائر العام ، لدراسة مدى تأثير الخزانات ومشاريع الري الجديدة على الأراضي الزراعية القريبة منها ، واوضح جلال بابان بأن اللجنة تابعت دراستها ، واتصلت بالمتصرفين لمعرفة تقاريرهم حول هذا الموضوع .

وكان قانون المجلس قد حدد في مادته الأولى مدة العضوية في المجلس بخمس سنوات قابلة للتجديد ، ففي ٥ تشرين الثاني ١٩٥٥ انتهت عضوية جلال بابان في المجلس ، ولكنها جددت في ٢٤ من الشهر نفسه ، وذلك بناءً على كفاءته ومؤهلاته المعروفة والتي تمثلت في المناصب التي شغلها كافة .

وكان المنهاج العام لمشاريع المجلس للسنوات ١٩٥٥ – ١٩٦٠ قد عانى مجموعة من النواقص والثغرات ، لذلك تطلبت الحاجة لوضع منهاج جديد ، وذلك في ضوء ما توفر للمجلس من دراسات وتقارير وتوصيات جديدة ، لذلك تقرر منذ مطلع عام ١٩٥٦ تعديل المنهاج النافذ ، وبعد مناقشة اللجنة التوجيهية للمجلس لمسودة المنهاج الاضافي المقترح ، وذلك في ٤ نيسان ١٩٥٦ ، تقرر تأليف لجنة عليا من اعضاء المجلس برئاسة جلال بابان وعضوية كل من ضياء جعفر ، وعبد المجيد علاوي ، وعبد الجبار الجلبي ، وعبد الرحمن الجليلي ، لدراسة مسودة المنهاج المقترح ، وبعد انتهاء اللجنة من الدراسة المطلوبة، وضعت توصياتها ، وبناءً على ذلك قرر المجلس في ٢٨ نيسان ١٩٥٦ قبول المنهاج المقترح ، كما وافق على التخمينات المالية للسنوات الست المنتهية بنهاية سنة ١٩٦٠ المالية بوصفها منهاجاً اضافياً لقانون المنهاج العام لمشاريع المجلس ووزارة الاعمار رقم ٤٣ لسنة ١٩٥٥ .

وحظيت بعض مشاريع المجلس باهتمام شخصي من جلال بابان ، وذلك من خلال زياراته الميدانية لهذه المشاريع في اثناء انجازها ، ومنها زيارته لمشروع الاسكان في جانب الكرخ بصبحة طه الهاشمي نائب رئيس المجلس وعدد من اعضاء المجلس .

وجدير بالذكر ان جهود جلال بابان في المجلس لم تقتصر على دوره في اللجان الخاصة المؤلفة لوضع منهاج المجلس ، وانما ايضاً على عضويته في اللجنة التوجيهية للمجلس والتي كانت مؤلفة من جميع اعضاء المجلس باستثناء وزير الاعمار . وكان لعمله في وزارة الاقتصاد والمواصلات ، ثم وزارة المواصلات والاشغال ، اثر كبير في اكتسابه خبرة واسعة في مجال الاقتصاد والمواصلات ، والتي انعكست على اعماله في المجلس ، فكان من العناصر الفاعلة فيه ، وافاد المجلس من خبرته كثيراً ، وكان عمله متميزاً في المجلس ، اذ خطى المجلس ووزارة الاعمار على يده خطوات جيدة ، ومن اهم المشاريع التي كان له دور فاعل فيها هي الجسور ، وانشاء شارع فلسطين الحالي . وكان

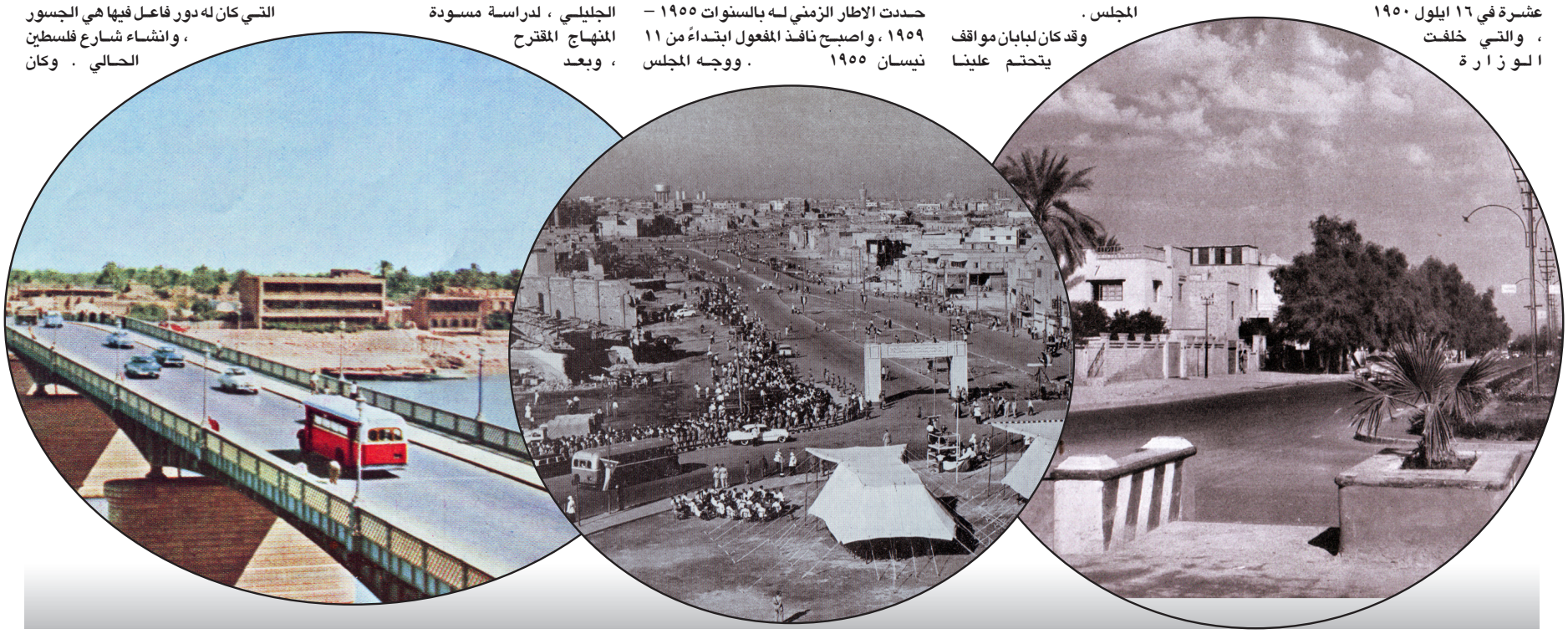

يفتخر بكل مشروع ينفذه المجلس معبراً عن ذلك بقوله : " اليوم وقعنا بناء المشروع الفلاني والفلاني وخير هذا المشاريع على العراق " .
وبعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، الغي مجلس الاعمار ، واحيل جلال بابان على التقاعد ، وبذلك انتهى اخر نشاط لجلال بابان خلال مسيرته الادارية .
ومما تقدم يمكن القول ان جلال بابان قد بذل جهوداً بارزة في المجلس وذلك من خلال مساهمته في وضع منهاج الاعمار ، والذي تضمن الكثير من المشاريع العمرانية ، والتي لا زالت ماثلة الى يومنا هذا ، كما يمكن القول ان انشاء هذه المشاريع لم يكن حكراً على عضو دون اخر من اعضاء المجلس ، وانما كانت نتاج مشترك لجهود جميع الاعضاء، ومن خلال اطلاعنا على هذه المشاريع تبين لنا مدى الخبرة التي تميز بها جلال بابان واعضاء المجلس في انشاء مثل هذه المشاريع الرامية الى تطوير البلاد ، وافادة سكانها في جميع مجالات الحياة .
وبعد احالة جلال بابان على التقاعد ، ابلغ محكمة الشعب برغبته في السفر الى بيروت فاجابته المحكمة بالاتي : " يعد جلال بابان من انزه الاشخاص وليس في نية المحكمة استدعاؤه لا شاهد ولا متهم " .
وفي عام ١٩٥٩ باع جلال بابان منزله وسيارته وغادر الى بيروت ، وسكن هناك في شقة صغيرة في منطقة الروشة في محلة راس بيروت .
وبعد مغادرته البلاد ، لم ينقطع جلال بابان عن الاتصال بأقاربه واصدقائه ومعارفه الساكنين في العراق ، ففي ١٣ حزيران ١٩٦١ بعث برسالة خطية الى السيد عبد الرزاق الحسني اشار فيها الى وفاه طه الهاشمي اذ قال نصه : " في الحقيقة كان له اشد التأثير في نفوس الاخوان كافة ممن عرفوا فضله وحسن مزاياه مع الاخلاق الحميدة ولكن شاءت المقدرات الالهية ذلك فله الرحمة والغفران ولاخوته المحبين الصبر والسلوان " وتضمنت رسالته ايضاً سؤاله عن صحة ابا سراب (احمد مختار بابان) وتوقه بأن يحصل على اخبار جديدة اكثر سروراً ، كما تضمنت ايضاً تحياته التي بعث بها لبعض من معارفه واصدقائه .
ان هذه الرسالة ، التي يتم الكشف عنها لاول مرة ، تدل على تقييم جلال بابان لرجال السياسة في العراق في العهد الملكي ، كما تدل وبلا شك على حسن الوفاء لدى جلال بابان وذلك من خلال سؤاله عن بعض من اقاربه وسروره لسماع الاخبار الجديدة عنهم ، وايضاً من خلال تحياته التي بعث بها لبعض من اصدقائه ومعارفه .
وفي عام ١٩٦٢ زار جلال بابان العراق ، والتقى باصدقائه ومعارفه ، ولم يمارس أي عمل بعد احالته على التقاعد واستقراره في بيروت ، وكان يجتمع هناك في منزل احمد مختار بابان مع كل من علي جودت الايوبي ، وتوفيق السويدي ، وجميل الاورفلي ، وجمال بابان ، ومحمود بابان وغيرهم من ساسة العراق في العهد الملكي .
وعانى جلال بابان من اعتلال في صحته لتقادم سنه ، وابتلي بمرض السكر ، وفقد بصره في الايام الاخيرة من حياته ، وكان يوصي من يزوره من اقاربه بعدم التدخل في السياسة ، ويؤكد خدمة الناس اذ قال " عليكم فقط خدمة الناس ولا تجعلوا الناس يسبونكم ويذمونكم بالصفات غير اللائقة بنا " .
وتوفي جلال بابان في بيروت ، في محلة رأس بيروت في٢٣ تشرين الاول ١٩٧٠ .
وقد اوصى بدفنه بجوار ابن عمه جمال بابان ، فدفن في المقبرة الاسلامية في بيروت بناءً على وصيته ، واقيم له مجلس للفاتحة في دار السيد توفيق الكيلاني – زوج ابنته الهام – في منطقة الكرادة سبع قصور ،كما اقيم له قبر رمزي في المقبرة الاسلامية في بغداد في جانب الكرخ من قبل عميد الاسرة البابانية السابق نجيب جميل بابان .

أنقذت الملك فيصل الثاني من موت محقق!

د. محمد حسن سلمان

في إحدى الليالي وفي مطلع عام ١٩٥١ كلمني أحدهم من القصر الملكي (الرحاب) ورجاني أن أحضرللاشتراك في علاج الملك .
حضرت سيارة من البلاط وحملتني إلى القصر مع حقيبتي الطبية. فدخلته وأنا مندهش لهذه المفاجأة غير المتوقعة، فلم أكن على صلة بالبلاط، ولا سبق لي أن عالجت الملك. كما أنني لست الأخصائي الوحيد في مثل هذه الأمراض، لأفتقد في مثل هذه الظروف. لم أسال في وقته عن ذلك. ولم يهمّني في تلك اللحظات إلا أن اقدم ما أستطيع من خدمة طبية واجبة كما أقدِّمها لأي مريض أخر. تلقاني الدكتور عبدالهادي الباجه جي والسيد تحسين قدري، ودلفا بي إلى المكتبة، فوجدت كلاً من الأمير عبد الإله، نوري السعيد، وطبيب العائلة الخاص وكان إنكليزياً، وبعض رجال الدولة والبلاط. فبادر السيد تحسين قدري بقولة: سيدي ... هذا الدكتور محمد حسن سلمان. فقال الأمير وعيناه مغرورقتان بالدموع: اصعدوا إلى غرفة الملك.
وكانت في الطابق الثاني ، في نهاية الممشى .. صحبني السيد تحسين قدري وأدخلني غرفة الملك، وكان مسجىً في فراشه، وهو يتنفس بصعوبة بالغة، وقد احتقن وجهه وعيناه، وصدره يعلو ويهبط وأرنبتا أنفه ترتجفان، وقد وُسِّدَ بعض الوسائد، منحني الرأس، وهو وضع كل من تمر به هذه الأزمة، فأشار إلي بيده إشارة يفهمني بها أن لا فائدة من العلاج.
تقدمت كطبيب، وبإحساس غريب، هو مزيج من الشفقة والحنان والتردد والخوف، واليأس والأمل، ورجوته أن يسمح لي بالكشف عليه، فأومأ برأسه موافقاً.
بدأت الفحص، فوجدت أن الحالة تنذر بالخطر وأن الأزمة شديدة والقلب يضعف، وهي مانسميها في الطب حالة (ستاتس اسماتيكس) فتأثرت كثيراً، ولم أجد إلا أن أكذب عليه كذبة الأطباء البيضاء، حيث طمأنته وهوّنت عليه. فابتسم غير مصدِّق!
ثم استأذنته للنزول إلى الطابق الأول لأرى الأمير. فدخلت المكتبة ثانية حيث لايزال الجميع فيها، فأعلنت رأيي بأن الحالة مع الأسف خطيرة. وقد تأكد لي بأن الزملاء الأطباء عملوا كل ما في وسعهم وعلمهم في هذا الخصوص وليس عندي ما أضيفه، ثم اتبعت قولي هذا بكلمة رأيت لا بد لي كطبيب أن أقولها، إذ سبق لي أن شاهدت أمثال هذه الحالات المرضية في عيادة الدكتور (براون) في برلين أثناء وجودي أيام الحرب. وكان هذا الأخصائي يستعمل حقنة خاصة هي مزيج من مادتين قويتين خاصتين بعلاج هذا المرض تكون نتيجة زرقهما أما انحسار النوبة وإما الإضرار بالقلب مما قد يؤدي إلى الموت. ثم تابعت الحديث قائلاً: لو كان المريض غير الملك لتحملت المخاطرة والمسؤولية، ولكن المريض ليس كذلك، فلا أستطيع تحمل مسؤولية عدم النجاح. خيَم الصمت على الحضور، ونظر كل في وجه الأخر، فقطع الأمير حبل الصمت وقال: لا بد من عمل شئ، اعمل اللازم يا دكتور (وعلى الله الاتكال). خرجت من المكتبة، وقد شعرت وكأن جبالاً سقطت عليَ، إذ وضعني قرار الأمير في موضع لا أحسد عليه، وحمّلني مسؤولية تاريخية عظيمة. فرفعت وجهي إلى السماء ودعوت الله أن يعينني على ما أنا قادم عليه.
صعدت إلى غرفة الملك مرة ثانية فوجدت حول سريره جدته الملكة (نفيسه) بخمارها الأبيض جالسة فوق سجادة للصلاة، وخالاته الأميرات يُحطن به، فأخبرتهن بأنني سأحقنه الآن أملاً بالشفاء إن شاء الله.
هز الملك رأسه ليقول أن لا فائدة من ذلك.. وسلمني ذراعه، فمزجت الحقنتين وزرقتها في وريد الذراع الناحل ويداي ترتجفان، وقلبي يكاد يقف عن الخفقان إذ لم تمر بي حالة كهذه من قبل، وكانت أبصار من حولي شاخصة واجفة مبتهلة إلى الله القدير أن يرأف بهذا المريض المحبوب. جلست خلف المريض أسند رأسه إلى صدري حتى أخذته إغماءة، فوسدته ثم افترشت الأرض لصق سريره، وآلة ضغط الدم مربوطة إلى ذراعه، وأنا أراقب ضربات قلبه التي وهنت، وضربات قلبي التي تضاعفت، وكأنها تريد التعويض.صورة حية مأساوية لا ترسمها ريشة ولا يصورها خيال انطبعت في ذاكرتي، لا تمحوها الأيام وهي لا تزال أعظم ما مرَ في حياتي من صور ورؤى وأحلام.
بدأ الضغط الدموي يهبط والقلب يضعف، فبدأ يأسي يزداد، وقد نسيت كل شئ إلا تعلقي بالسماء، والإشعاع من الإيمان بالذي هو أقرب من حبل الوريد. وبعد زمن هو دهر من السنين، عاد الضغط تدريجياً إلى الارتفاع وقوي القلب وانتظم النبض وهدأت النفس، وكدت لا أصدق علائم الخير هذه، فأنصت مجدداً لأتأكد، حتى تململ الجسد المسجَى، وفتحت الهينان، وتلفت الوجه الحزين، يتصفح الوجوه المدققة، وارتسمت الابتسامة الرقيقة، وأشرق الأمل بعد اليأس، وتحركت اليد وأمسكت بيدي ضاغطة برقة معربة عن الشكر والامتنان.
حاولت أن أنهض من مجلسي على الأرض، فلم أجد لي أرجلاً لأقوم، فقد كانت مخدرة شبه مشلولة من طول الجلوس والانطواء، فمددتها وضغطتها حتى جرى الدم فيها، وقمت لأجلس على طرف السرير لأواجه عودة الحياة إلى ذلك الوجه الذي غرق في سكرات الموت ثلاث ساعات طوال هي في حساب القلق والترقب ثلاثة أعوام أو يزيد.
جلس الملك في فراشه وطلب الطعام، فأمرت له بشيء من الشاي والبسكويت ثم استأذنت بالانصراف.

عن مذكرات محمد حسن سلمان

قانون دعاوى العشائر ...

كيف فرضته بريطانيا على العراقيين؟

سعت السلطات البريطانية المحتلة إلى النظر إلى التركيبة الاقتصادية والاجتماعية كحالة مجزأة غير قائمة على الهوية الوطنية الموحدة . ففي نظام القضاء بين العشائر وضع الإنكليز نظاما أطلقوا عليه "نظام دعاوى العشائر المدنية والجزائية" . وبموجب هذا القانون حاولوا معاملة أبناء العشائر كافراد بعيدين عن "التمدن" .
وبهذا نظرت الإدارة البريطانية إلى المجتمع القبلي ككيان قائم بذاته ومستقل عن المجتمع المدني فاصطنعت له المقومات واجتهدت من أجل تنظيم شؤونه وأصدرت هذا النظام (القانون) المذكور لهذه الغاية بعد أقل من ستة اشهر على صدور قانون الأراضي المحتلة، وفق البند الخامس والخمسين ، الفقرة – ب – منه والتي أجازت للضابط العدلي الأقدم حق إصدار مثل هذا النظام ، والذي وضعه هنري دوبس في ١ شباط ١٩١٦ على غرار "نظام جرائم الحدود الهندي" Indian Frontier Regultio الذي وضعه وطبقته روبرت ساندمان R.Sandeman في بلوجستان سنة ١٨٧٥ وقد صادق عليه الفريق بيرس لك Lake القائد العام لقوات الاحتلال انذاك في ١٢ شباط ١٩١٦ ونشره العقيد نوكس في ٢١ شباط ١٩١٦.

د .عمار يوسف العكيدي

لقد استخدمت الإدارة البريطانية هذا النظام "سلاحاً ماضياً" مستهدفة تركيز السلطة الإدارية بيد الحكام السياسيين أولا ، وشيوخ القبائل ثانيا . وتعاملت بموجبه مع قضايا المجتمعات القبلية وفق ما هو سائد بينها من الاعراف والعادات التي كانت تحل بموجبها العديد من المشاكل والخلافات من حوادث القتل والجرح والزنى والاعتداء وأتلاف المحاصيل قتل الحيوان وغيرها . وكانت هذه المشاكل تحسم عادة بـ "الفصل" أو "الدية" أو ما هو متفق عليه بين أفخاذ القبيلة والقبائل الأخرى . فقد حدد هذا النظام طريقة دفع الدية أو الفصل.

تضمن هذا النظام إحدى وعشرين مادة وعَد نافذ المفعول من تاريخ صدوره ، وتشمل تطبيقه إطار المناطق التي احتلت أو ستحتل مستقبلاً من قبل القوات البريطانية ولرئيس الضباط السياسيين أن يستثنى بموافقة القائد العام مناطق يعلن عنها من دائرة تنفيذ هذا النظام.

خول هذا النظام الحكام السياسيين صلاحيات خاصة تمكنهم من البت في القضايا الحقوقية والجزائية من خلال "مجلس قبلي" يتم تشكيله من قبل الحكام السياسيين انفسهم ، يضم المحكومين والشهود وينظر في المشاكل التي يكون احد طرفيها أو كلاهما من سكنة المناطق العشائرية . وكان الضابط السياسي مخولاً بنقض قرار المجلس القبلي، واستبدال عقوبة السجن بالجلد، وهو أسلوب استخدمته السلطات المحتلة للتنكيل بالعناصر التي تعترض سبيل مصالحها أو تهديد أمن قواتها المسلحة.

لقد رفع هذا النظام من اهمية الشيوخ بأعطائهم مركزا معترفا به في النظام السياسي والقانوني وألزم عشائرهم بالاعتراف بمراكزهم الاجتماعية رسميا. كما ازاح هذا النظام عن كاهل الحكام السياسين مهمات كثيرة كانت مناطة بهم.

لقد حدد هذا النظام طريقة معالجة القضايا والاحداث التي تقع في اوساط العشائر بانه في حالة كون اطراف النزاع أو احدهما من العشائر يستطيع الضابط السياسي في المنطقة ان يحيل القضية المتنازع فيها إلى مجلس عشائري أو هيئة تحكمية تتألف من شيوخ أو محكمين عشائريين تتشكل بموجب العرف الاجتماعي للنظر بها وفقا للاعراف العشائرية. ويكون ذلك بحضور شيخ العشيرة المتنازع أفرادها.وكان للحاكم السياسي الكلمة النهائية في جميع الاصول التحكمية، فكان بوسع الحاكم السياسي أو رئيس الحكام السياسيين أو الحاكم الملكي العام ان يصادق على القرارات في ضوء صلاحيته أو اهمالها أو اضافة ما يراه مناسباً اذا كان القرار الذي تتوصل اليه هيئة التحكيم غير عادل أو مخالفا لحقائق الدعوى الاصلية.

وفي الوقت نفسه يزود الضابط السياسي المجلس العشائري، ضمن امر احالة القضية بكافة المعلومات المتعلقة بالقضية التي يحيلها اليه. وفي ضوء قرار المجلس يتصرف الضابط السياسي فهو يستطيع ان يطلب اعادة النظر في القضية أو رفعها إلى مجلس عشائري ثان أو اصدار حكم فيها يتفق مع قرار المجلس. وفي حالة مخالفة المجلس تماماً لما يراه الحاكم السياسي، فان بامكانه ان يحيل القضية إلى رئيس الحكام السياسيين أو يحكم بها قضائيا بنفسه، واذا لم يملك مثل هذه الصلاحية فانه يحيل القضية إلى محكمة نظامية أو ينقض القرار الصادر عنها ويتصرف وفقاً لما يراه مناسبا، على ان لا يشمل ذلك الاحكام المتعلقة بالسكن. كما كانت الدعاوى العشائرية تحال إلى خبيرين ينتخبان من الجانبين المتنازعين، وعلى الحاكم الاداري تنفيذ ما يقرره المنتخبان، اما فرض العقوبة فيقرره الحاكم الاداري نفسه.

وفي مجال العقوبات فقد اكد نظام دعاوي العشائر على فرض العقوبات الجماعية على كل افراد القبيلة التي تقوم باعمال مناهضة للسلطات العسكرية البريطانية . ومن هذه العقوبات حجز القبيلة أو مصادرة اموالها.

أو ابعادها عن موطنها الاصلي إلى خارج الحدود احياناً ولا يسمح لها بالعودة إلى الاراضي العراقية، ومنع ابناء القبائل من بناء الحصون أو المواقع التي يحتمل استعمالها ضد السلطات البريطانية . كما خول هذا النظام نقل القرى المشكوك في ولائها من مكان إلى آخر.

وفي الوقت نفسه أشترط على الحاكم السياسي ان يحصل على تأييد رئيس الحكام السياسيين للاحكام التي تزيد عن سنتين سجن أو غرامة تزيد على الالفي روبية. وللحاكم السياسي ان ينفي، وبمصادقة مسبقة من رئيس الحكام السياسيين، بعض الاشخاص في حالة اعتباره اياهم خطرين على الامن. فخلال العام ١٩١٩ تم ابعاد ٤٢ حالة جرمية أو جنائية من قبل الحاكم السياسي و٨ حالات من قبل المجلس القبلي في القرنة.

كما خول هذا النظام الحاكم السياسي في أخذ تعهد من القبائل أو الافخاذ أو العوائل بنبذ النزاع بسبب خصومات الدم أو غير ذلك لمدة ثلاث سنوات للحفاظ على الامن. فحين وقعت في أب ١٩١٩ حادثة قتل اعتيادية في فخذ من افخاذ البو سلطان كانت استجابة السلطات البريطانية لها كالمعتاد وذلك بالحكم بالفصل.ولكن "ربما ان القتل في هذه القضية ينطوي على استهانة بسلطة عداي الجريان شيخ مشايخ البو سلطان في الحلة فقد قام الكابتن طومسون Tomson بناء على طلب عداي الجريان بالسير فورا على رأس قوة من الليفي تعد نحو الخمسين رجلا يقودهم الكابتن ماكميني فاحرقوا قرية المعتدي واخذوا ماشيتها".كما قام الكابتن مارس الضابط السياسي للعمارة بحل نزعات الدم بين الشيوخ في منطقة البهادل.

وخول نظام دعاوي العشائر، الحكام السياسيين أيضاً التصرف بالغرامات المفروضة على أبناء العشائر المتعاقبة وحسم المشاكل الناجمة عن ملكية الارض.

وفي الوقت نفسه فقد استعان الحكام السياسيون بالشيوخ والسادة في تحقيق الصلح بين بعض العشائر واحال بعض الحكام السياسيين قسما من المنازعات التي تحصل بين بعض العشائر إلى المجتهد الديني في النجف كاظم اليزدي، حيث سبق ان احال ديكسن الحاكم السياسي لسوق الشيوخ اليه منازعات عديدة.

وقد جاء في معرض تبرير السلطات المحتلة للظروف والاوضاع التي تستدعي وجود نظام دعاوي العشائر ما يأتي:" ان العادات والحاجات المحلية هي التي توجد القوانين وتكيفها..." . لاسيما ان الإدارة البريطانية ذكرت عدة اسباب لاقرار هذا النظام ومنها، عدم استطاعة تطبيق القانون المدني وقانون العقوبات واصول المرافعات الجزائية على افراد العشائر، وان وجود المجالس الإدارية المحلية في كل وحدة ادارية يجعل من الميسور التحقيق العاجل ومعرفة التقاليد والاعراف في المنطقة العشائرية، كما ادعت سلطات الاحتلال ايضا ان الموظفين البريطانيين كانوا مثقلين بالمسؤوليات مما يستوجب ان تناط بعض مسؤولياتهم بشيوخ العشائر. فضلا عن تشجيع سلطة الشيوخ في مناطقهم العشائرية حفاظا على الامن والنظام.

ومن اجل تطبيق هذا النظام جند البريطانيون عددا من ابناء القبائل لمتابعة تنفيذ العقوبات بعد ان حدد الحاكم السياسي مناطقهم الإدارية، فاصبحوا يتمتعون بصلاحيات

دخول القوات الانكليزية الى بغداد سنة ١٩١٧

وامتيازات رجل الشرطة، وكانوا ملزمين بتنفيذ تعليمات شيوخ قبائلهم.
وانسجاماً مع تطبيق هذا النظام في المناطق العشائرية فقد أسست الإدارة البريطانية المحتلة مجالس ادارية في مراكز الالوية مؤلفة من رؤساء العشائرية للنظر في شؤونهم ومشاكلهم الخاصة. كما جعل البريطانيون بعض شيوخ العشائر وفي عدد من المناطق أعضاء في مجالس خاصة بهم للقيام بمساعدتهم في إدارة أفراد عشائرهم . فقد شكل مجلس من الشيوخ في العمارة وسوق الشيوخ والناصرية وقلعة صالح والحلة وسامراء .
وفي العمارة كانت معالجة المشاكل القبلية من اختصاص (المجلس القبلي) الذي كان يديره الحاكم السياسي في العمارة الكابتن مارس ومساعده في المقاطعات التابعة لها . ويتم اختيار أعضاء المجلس عادة من الحاكم السياسي الذي يستند إلى تقارير مساعديه في المقاطعات ، كما كان يؤخذ بنظر الاعتبار مواقف الشيوخ السابقة والحالية في الإدارة البريطانية .
وفي معرض تعليقه على عملية اختيار الشيوخ من للمجلس القبلي يقول الحاكم العمارة السياسي : "لقد حاولت جاهدا أن احصل على قائمة بأسماء – الشيوخ الشرفاء – الذين يحملون مواصفات خاصة لتكوين مجلس قبلي منهم ، لكني لم أنجح في ذلك حالياً ومع ذلك فاني مستمر في هذه المسألة".
وفي الوقت نفسه كانت الدعوى العشائرية في العمارة تحال عادة على شيخ المشايخ الذي كان يستعين بالشيوخ الآخرين ويطلب مشورتهم عند الحاجة ويبت في الدعوة بموجب أحكام قانون العشائر وعرفهم . ولكن القضية التي تخص أكثر من قبيلة واحدة كان يعقد لها مجلساً عشائرياً خاصاً متألفاً من شيوخ يمثلون القبائل المعنية بالقضية . ولم تكن هذه الاجراءات تستدعي أي تدخل حكومي في هذا العرف العشائري.
وكانت المشاكل القبلية من اختصاص المجلس الذي شكله المحتلون البريطانيون بعد احتلالهم لمنطقة الناصرية في ألاقضية والنواحي، وكان يتألف من أربعة شيوخ في أغلب الاحيان يختارهم الحاكم السياسي أو أحد مساعديه.

وفي الحلة بادرت الإدارة البريطانية إلى تشكيل مجلس قبلي بعد أن اقتنعت أن المشاكل العشائرية لا تحل الا من قبل المجلس القبلي الذي يجب تشكيله بسرعة في لواء الحلة وفي الاقضية والنواحي التابعة لها ، ويجب أن يختارهم الحاكم السياسي أو احد مساعديه الذي يضم عدد من الشيوخ البارزين الذين تشعر بريطانيا بأهميتهم .
لقد شهدت المدة التي تشكل فيها المجلس القبلي تدن في عمليات السلب والقتل بين العشائر اذا ما قورنت بالاشهر الأولى للاحتلال البريطاني ، فقد تحسنت الصلات مع العشائر بعد نجاح المجلس القبلي في الحلة في معالجة المشاكل العشائرية وفي حل كثير من القضايا وتسوية المنازعات العشائرية واصبح الوضع العام بفضلهم جيدا وهادئا وساهم أعضاؤه بمساعدة الإدارة البريطانية في جمع الضرائب وحشد الفلاحين للعمل في مختلف المشاريع.
وفي الكوت يمكن معرفة تشكيلية المجلس القبلي فيها والمشابهة إلى حد كبير مع بقية المجالس القبلية في المناطق العراقية المحتلة من خلال التعرف على أعضاء المجلس الذي أجتمع في ٢٤ تموز ١٩١٨ للنظر في المشكلة التي كانت قائمة بين قبيلة المياح في الكوت وقبيلة الصريفين في الناصرية حول عائديه احدى المقاطعات الزراعية وكان من أعضاء المجلس أربعة سراكيل من قبيلة المياح ومساعد الحاكم السياسي في الحي والشيخ موحان الخيرالله شيخ الحميد والشيخ حاتم الياقوت شيخ الصريفين والشيخ حمادي السطيح من الصريفين ايضا والشيخ عبدالله الياسين من شيوخ المنطقة.
وفي سامراء تم ترتيب مجلس قبلي من قبل الحاكم السياسي المساعد في تكريت لحل المسألة المهمة العالقة بين البو عجيل والبو علي في ١٦ تشرين الثاني ١٩١٨ .
وفي الوقت نفسه خصصت الإدارة البريطانية مكافأت مجزية لاعضاء المجلس القبلي لقاء تعاونهم قدرها (٣٠٠) روبية شهريا وقد شملت كلاً من الشيوخ عداي الجريان وهزاع المحيميد وسماوي الجلوب وفيصل المغير وسلمان العكيد ثم أستبدل الأخير برشيد العنيزان.
ومن جهته عبرّ بيرترام توماس مساعد حاكم الشطرة السياسي عام ١٩٢٠ عن فحوى أهداف الإدارة البريطانية تجاه القبائل حينما ذكر بأن خطة الإدارة الجديدة بتشكيل المجالس القبلية وتعيين الشيوخ بوظائف ادارية هي نوع من أنواع السيطرة الخفية لاحتواء العشائر وتأمين جانبها لكي تتفرغ القوات العسكرية البريطانية لتحقيق الهدف الرئيس وهو النصر على القوات العثمانية.
كما أكد بعض الموظفين البريطانيين ضرورة الاستفادة من هذا النظام لتعزيز الوجود البريطاني بأي أسلوب كان ، ولا سيما أنهم استغلوا مشاكل القطر الداخلية في تثبيت كيانهم وهذا ما اكدته احدى الرسائل الصادرة من قسم تجارة ما وراء البحار وجاء فيها : "أن حالة فوضى نظام ملكية الأراضي في وادي الرافدين يمكن أن يسمح للمستوطنين الأوربيين ببناء مستعمرات فيه .
وكان المحور الذي تدور عليه هذه السياسة هو ملكية الأراضي والمصلحة البريطانية وقد اكد هذه المسألة فرني Fernea بقوله : "أن هذه الطريقة كانت مدركة عندنا لتكون سلاحا بجانب النظام والاستقرار. وقد كانت عادة الحكام السياسيين عندما يسمعون بالمشاكل أن ينادوا المختارين ورؤساء محلات المدينة ويسألونهم ليأخذوا دورا في المحاكمات لذا فان الحكام السياسيين صاروا يلتفتون إلى شيوخ القبيلة ويستحصلون على ارائهم ، لقد اتسعت هذه التجربة لتؤلف قانونا عرف بنظام المنازعات العشائرية" .
وبعد احتلالهم لبغداد وسع البريطانيون من تطبيقهم لنظام دعاوى العشائر وجعلوه شاملاً لمعظم الأراضي المحتلة في العراق ، فصدر نظام دعاوى العشائر المدنية والجزائية في ٢٨ تموز ١٩١٨ بشكل بيان من قبل الجنرال فانشو Fanshoo القائم باعمال القائد العام للقوات البريطانية وتأييد أحكامه وأصبح له قوة القانون التشريعية عند صدور القانون الاساسي العراقي (الدستور) في سنة ١٩٢٥. اذ نصت المادة ١١٤ من الدستور على "أن جميع البيانات والأنظمة والقوانين التي اصدرها القائد العام والمندوب السامي والتي اصدرتها حكومة الملك فيصل في المدة التي مضت بين اليوم الخامس من تشرين الثاني ١٩١٤ وتاريخ تنفيذ هذا القانون الاساسي تعتبر صحيحة من تاريخ تنفيذها" .
وأهتم المندوب السامي بيرسي كوكس (١ تشرين الأول ١٩٢٠– أيار ١٩٢٣) بإعطاء الحكومة العراقية الانطباع بان هذا القانون وكأنه هو "القانون الطبيعي للبلاد" وأن "اصداره" يمنع الحكومات العراقية التالية من الغائه. مع هذا فقد عكف المستشارون الإنكليز على ادخال التعديلات المناسبة على القانون وذلك ليواكب التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تمر بالبلاد .
وعلى ما يظهر فان الدافع الذي حدا بالبريطانيين لاصدار نظام دعاوى العشائر يعود بالدرجة الأولى إلى كسب الاقطاعيين وخاصة شيوخ العشائر وتحويلهم إلى قاعدة اجتماعية يستندون اليها في حكمهم للعراق . أن التدابير التي اتخذتها الإدارة البريطانية في اصدار نظام دعاوى العشائر قد قوبلت بكل ترحاب فيما بين رؤساء العشائر ولا سيما من قبل شيوخ القرنة والعمارة .
لقد اثبت هذا النظام فائدته الكبيرة للإدارة البريطانية وجهازها ، الا أنه من جهة أخرى لم يخل من بعض النواقص فقد ورد في تقرير رسمي : "أن قانون العشائر ليس رادعا فعالا للجريمة ، إذ ان مسؤولية العقوبة لا تقع على الفرد الذي ارتكب الجريمة بل على العائلة أو الفرع أو العشيرة التي ينتمي اليها . وبعد هذا فان حصة غرامة الدم التي يدفعها المجرم في الواقع قد تكون تافهة" .
كما كان لهذا النظام العديد من المخاطر الاجتماعية ، تتبلور هذه الاخطار في انه يؤدي إلى "القضاء على فكرة القاعدة القانونية ، وفي انتهاك قانون وحدة القوانين المدنية والجزائية أو في العبث بالمثل القانونية سواء كانت تربوية أو إسلامية".
وفي الوقت نفسه لم يجرِ تطبيق القانون بوجه حسن مرض عموماً وذلك لصعوبة التمييز بين ما هو خاضع للمناطق العشائرية وما هو خاضع لمناطق المدن ، كما ان صرامة القانون والعقوبات تفوق صرامة العرف العشائري . فضلا عن ذلك أن مثل هذا النظام الذي يهدف إلى حسم المنازعات العشائرية وفق العادات والتقاليد كان يراد به جعل المجتمع العشائري قائما على العصبية ومتمتعا بالاستقلال القضائي والاداري – ومعتمداً على تنظيم سياسي أو إداري في البلد فيما خلا العشيرة – ولهذا كان هذا النظام من عوامل التصدع والتفسخ الاجتماعي سواء في عهدي الاحتلال أو الانتداب البريطاني لانه عمل على تجزئة البلاد إلى وحدات عشائرية لا يوجد بينهما انسجام أو تضامن وعزلها عن المجتمع العراقي في المدن . كما ساعد هذا النظام على تقوية الشيوخ الموالين لبريطانيا وجعلهم تابعين لتوجية حكام السياسيين مما أدى إلى تماسك النظام الاقطاعي في العراق واصبح الشيخ أشبه ما يكون بـ "دولة داخل دولة" .
وهنا فقد جاءت انتقادات (ايرلند) لهذا النظام الذي أقرته سلطات الاحتلال في محلها تقريبا لا سيما في قوله : "ورغم ان سياسة اعادة التماسك في كل قبيلة وتعزيز حكم الشيوخ فيها نافعة من ناحية الضرورات العسكرية الآنية ، أو موافقتها لاحوال وظروف المجتمع العشائري ، فأنها كانت تعج بالمشاكل في المستقبل اذ تترتب عليها انحطاط المجتمع العشائري خاصة بين العشائر التي تزرع الرز وتغرس النخيل حيث اصبح اعادة تنظيم المجتمع مرهونا بتأييد الشيخ بالقوة العسكرية" .
وتطرق ايرلند ايضا إلى حديث دوبس عن هذه السياسة والذي أكد فيه بأن سياسة انكلترا أدت إلى تفاقم قوة الشيوخ ، والذين وجدوا صعوبة كبيرة في منع أنفسهم عن ارتكاب أي تعسف ضد أبناء عشائرهم .
وأضاف إلى أن هذه السياسة كانت مقصودة لغرض وضع اقطاعي لا ينسجم مع سنة التطور في المؤسسات السياسية ولتبرير ذلك زعمت السلطات البريطانية أن تشكيل حكومة بيروقراطية لا تشعر القبائل نحوها بالاطمئنان كان لا ينسجم مع الوضع الراهن انذاك" .
ومن هنا يظهر أنه اذا كان اقرار هذا النظام وفق ما ادعته سلطات الاحتلال يعبر عن الرغبة في استقرار الريف واستقرار المجتمع العراقي الا أن الواقع يبدو مخالفا لهذا الاستنتاج تماما . واستنادا إلى التطورات السياسية التي شهدها العراق خلال الثلاثين عاماً ونيف التي تلت تأسيس الحكم الوطني فيه نرى أن السلطات البريطانية ابقت على الكيان شبة المستقل للمجتمع العشائري بهدف استخدامه كوسيلة للضغط على الحكومات العراقية وذلك كلما تعرضت مصالحها للخطر .

مـــن احـــــداث الـــمـــوصـــل

ثلاثة احداث مثيرة في اواخر العهد العثماني

لقاء فتحي العبادي

ناظم باشا

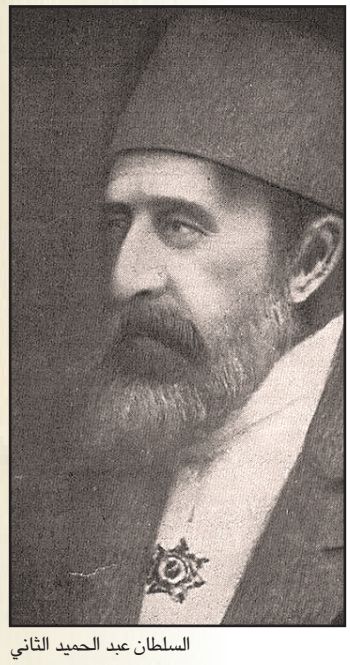

السلطان عبد الحميد الثاني

المؤرخ الموصل الراحل احمد الصوفي ، صاحب المؤلفات الرصينة ، عدد من المؤلفات التي لم تزل مخطوطة ، وهي جديرة بالتحقيق والنشر ، ومنها مخطوطته : تاريخ وعبر الموصل في اواخر العهد العثماني . حرص الصوفي على الحاق مخطوطته بثلاثة ملاحق : تضمنت مواضيع واحداث مهمة شهدتها مدينة الموصل خلال حكم الاتحاديين وبداية الاحتلال البريطاني للموصل ، وتأتي أهمية تناوله لها في أن الصوفي كان معاصراً لأحداثها وواقفاً على تفاصيلها ، اذ في الملحق الأول تناول حادثة مقتل الشيخ سعيد البرزنجي في الموصل عام ١٩٠٩م قال عنها " ان مقتل الشيخ سعيد البرزنجي ونجله الشيخ أحمد وعدد من ذويه في الموصل كانت من الحوادث المحزنة التي وقعت بعد اعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨م" ، مما زاد من خيبة الآمال التي كانت قد علقت على الاتحاديين وبدلاً من ان يحققوا المبادئ التي جاءوا بها في الحرية والمساواة والعدالة اتجهوا الى تشديد قبضتهم على زمام الأمور ن وشرعوا يبطشون بالأبرياء ويدبرون المكايد لاغتيالهم ولاسيما من الموالين لعهد السلطان عبد الحميد الثاني فقد شرعوا بتصفيتهم وكان في مقدمتهم الشيخ سعيد البرزنجي الذي كان يتمتع بمركز ديني اكسبته حظوة السلطان عبد الحميد الثاني وثقته الذي كان يجد انٍ الشيوخ واصحاب الطرق الصوفية تاثيراً كبيراً في تعزيز حكمه في البلاد لهذا قربهم اليه واستجاب للعديد من مطالبهم . ثم تناول كيف حيكت مؤامرت قتله من قبل الاتحاديين

وكانت أول فصولها اصدارهم امر يقضي بوجوب ترك الشيخ سعيد وذويه السليمانية لأنهم أصبحوا خطر على الأمن في مدينة السليمانية وان يتوجهوا إلى مدينة الموصل حتى اشعار آخر ، فامتثل الشيخ سعيد للأمر وجاء إلى الموصل هو وذويه وخدمه ونزل في الدار الواقعة في شارع القشلة (العدالة) العائد إلى محمد باشا الصابونجي المقابل للمدرسة الاعدادية الشرقية .

ظل البرزنجي في الموصل ، وفي مساء اليوم الثاني من عيد الأضحى لعام ١٩٠٩ وهو اليوم الذي وقعت به الحادثة التي مفادها "في اليوم الثاني من عيد الاضحى عام ١٩٠٩ كان الازدحام على اشده في ساحة باب الطوب بمناسبة العيد كانت تلك الساحة مزدحمة بالمتفرجين من رجال ونساء وشباب واطفال وباعة متجولين وكانت النساء قد أخذت طرقا خاصة من الساحة ، وقد حصل نزاع بين احد افراد الجندرمة من الخيالة (الاسترسوار) وكان ثملاً فتعرض لامرأة حينما كان الازدحام على اشده وتفاقم النزاع بين الجندرمة وبين الاهالي وتجمع افراد الجندرمة وتحصنوا يطلقون الرصاص من بنادقهم على الاهلين فقابلهم الاهلون بعد ان تسلحوا بالمثل واستمر اطلاق النار بين الطرفين مما ادى الى وقوع عدد كبير من القتلى والجرحى وقد حاول والي الموصل ارجاع النظام والهدوء الى نصابه الا ان دائرة الفتنة اتسعت وفي اليوم التالي انتشرت اشاعة مفادها ان ما وقع من الاعتداء على الاهالي من قبل الجندرمة كان بايحاء من الشيخ سعيد مما اثار الاهالي الذين تسلحوا وتوجهوا نحو الدار التي يسكنها الشيخ سعيد وقد حاول الشيخ سعيد الدخول الى سرايا الحكومة الا ان الابواب اغلقت في وجهه عمدا فهجم عليه احد الاشخاص وقتله في حين اتجه آخرون الى داره فاقتحموا ابوابها وقتلوا الشيخ احمد احد انجاله وعددا من ذويه ونهبوا الدور والمخازن وقد ساد المدينة جو من عدم الامن هذا فضلا عن صدى هذه الحادثة في كردستان ذاتها" ، ولم يكتف الصوفي بمعلوماته عن الحادثة وما أورده عبد المنعم الغلامي عن الحادثة في كتابه الضحايا الثلاث وانما عمد إلى جمع معلومات أخرى جمعها من المطلعين على كيفية نشوء هذه الفتنة ، ومن خلال قراءتي للروايتين اجد ان نقطة الخلاف بين ما أورده الصوفي والغلامي تكمن فيمن تحرش بالمرأة ، فالغلامي يذكرانه بهاء أفندي بن عبد الله حين كان ثملا ، في حين أورد الصوفي انه أحد أفراد الجندرمة من الخيالة (الاسترسوار). وما يهمنا من الروايتين ان الشيخ سعيداً أو أحداً من أولاده ليس له علاقة بالموضوع . والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا يكون مصيرهم القتل ، لذا فان أصابع الاتهام تتجه نحو الاتحاديين الذين دبروا وقوع هذه الحادثة عندما عمدوا إلى بث اشاعة مفادها ان ما وقع من التجاوز والمصادمات بين الأهالي وأفراد الجندرمة بعد حادثة اثر كبير في نفوس أهالي الموصل اذ غدت تاريخاً يؤرخون عليه الأحداث وعرفت بـ(دقة) الشيخ سعيد والدقة تعني (الحادثة) .

وفي الملحق الثاني ، يتناول الصوفي حادثة مقتل الشيخ عبد السلام البرزاني وأراد من خلالها ان يعزز نظرته الى الاتحاديين الذين ابتعدوا عن مبادئهم ، لأن السبب الرئيس في اعدام الشيخ عبد السلام الثاني في الموصل عام ١٩١٤م هو دعوته بضرورة اجراء الأصلاحات في المناطق الكردية ويشاركه بهذه الدعوة كل من الشيخ بهاء الدين النقشبندي في العمادية ، والشيخ نور محمد القادري وبعد المناقشات والمداولات التي دارت بينهم قرروا ارسال برقية الى مجلس النواب والأعيان في العاصمة يطالبون فيها بجعل اللغة الرسمية في الأقضية الكردية الخمسة اللغة الكردية ، وجعل لغة التعليم الابتدائي والموظفين الآخرين ممن يحسنون اللغة الكردية ومطاليب أخرى في اصلاح الطرق وفتح المدارس . الا ان الحكومة الاتحادية عدت هذه المطاليب تمرداً على الدولة وقامت بتهيئة قوة لضرب الشيخ عبد السلام البارزاني وزحفت على بارزان وخربت تكية البارزانيين ، وحرقت قراهم . وبصعود حزب الحرية والائتلاف عمد والي بغداد ناظم باشا إلى اصدار عفو عن الشيخ عبد السلام البارزاني وتعويضه عن الخسائر التي لحقت به واراد الوالي من ذلك ان يجعله قوة يرتكز عليها الحزب في مجابهة جمعية الاتحاد والترقي . الا ان الأمر لم يدم طويلاً فسرعان ما عاد الاتحاديون الى تولي السلطة مرة أخرى ليعود الخلاف من جديد بينهم وبين الشيخ عبد السلام البارزاني الذين دفعوا باحد عملائهم وهو درويش عبد الله رئيس أحد أفخاذ " عشيرة الشكاك " لاستدراجه واستضافته في قريته وما ان لبى الشيخ عبد السلام ورفاقه الدعوة حتى تم القاء القبض عليهم وزجهم في السجن العسكري في الثكنة العسكرية ، ثم أحالوا عبد السلام وأعوانه إلى المحكمة العرفية العسكرية التي عقدت جلساتها ووجهت اليه تهمة العصيان المسلح في وجه الدولة والسعي الى الانفصال عنها وتشكيل دولة كردية ، وجرت المحاكمة بصورة شكلية ، فحكم على الشيخ وثلاثة من جماعته بالاعدام شنقاً ، ولأن الدستور العثماني ينص على أن حكم الاعدام الصادر من المحاكم المدنية أو المجالس العرفية لاينفذ الا بمقتضى ارادة سنية ، وحتى لا تظهر اسباب تحول دون ذلك ، قام الوالي سليمان نظيف ، بالتعجيل باعدام الشيخ عبد السلام البارزاني ، ودبر خطة يوهم من خلالها الناس أن هناك محاولة مسلحة لتخليص الشيخ عبد السلام من السجن ، وحرصاً من الوالي على استتباب الأمن ، وهذه حجة احتج بها حين أبرق إلى الباب العالي يخبره باعدام الشيخ عبد السلام وثلاثة من أعوانه في ١٥ محرم سنة ١٣٣٣هـ المصادف ٢٠ تشرين الثاني عام ١٩١٤ ، صدرت أوامر الوالي سليمان نظيف بدفن الشيخ عبد السلام وأعوانه الثلاثة في مقبرة الغرباء قرب جامع عمر الملا في حفرة واحدة واخفوا معالمها خشية ان تصبح في المستقبل مزاراً يزوره الأكراد .

ظل البرزنجي في الموصل ، وفي مساء اليوم الثاني من عيد الأضحى لعام ١٩٠٩ وهو اليوم الذي وقعت به الحادثة التي مفادها "في اليوم الثاني من عيد الاضحى عام ١٩٠٩ كان الازدحام على اشده في ساحة باب الطوب بمناسبة العيد كانت تلك الساحة مزدحمة بالمتفرجين من رجال ونساء وشباب واطفال وباعة متجولين وكانت النساء قد أخذت طرقا خاصة من الساحة ، وقد حصل نزاع بين احد افراد الجندرمة من الخيالة (الاسترسوار)

أما الملحق الثالث فقد خصصه لعرض ماساة مدينة الموصل التي عانتها مدينة خلال الحرب العالمية الأولى والمتمثلة بالمجاعة المهلكة التي اجتاحتها ، وقد حدد الصوفي أسباب حدوثها وتفاقمها ،بما يأتي ١) انسحاب الجيش العثماني المقاتل ومؤسساته من طيران ومدفعية ومستشفيات ومعامل لصنع العتاد الحربي ودوائر التموين وكان مقر هذه المؤسسات مدينة الموصل ، ٢) هجرة العديد من موظفي ولاية بغداد والمدن العراقية الأخرى التي كان الانكليز قد احتلوها ، ٣) هجرة العديد من سكان ولاية وان وحكاري وارضروم وبتليس التي كان الروس قد احتلوها أثناء الحرب ومما زاد الوضع سوءاً ان المحصول الزراعي في قرى الموصل وملحقاتها هبط إلى ربع ما كانت تنتجه هذه القرى قبل اعلان الحرب لأن الرجال الذين كانوا قائمين عليها جندوا وارسلوا إلى جبهات القتال فكان من الطبيعي ان تصبح الموصل عاجزة عن اعاشة هذا العدد الكبير من البشر ، ومما زاد الوضع سوءا تشكيل لجنة المبايعات لجميع الحبوب من مختلف اصناف الشعب ويورد الصوفي ان هذه اللجنة مؤلفة من رئيس برتبة (مقدم) أسمه آدم بك ومن اربعة اعضاء اثنان من اعضاء مجلس ادارة الولاية وهما نامق آل قاسم أغا السعرتي ومصطفى الصابونجي ، ومن عضوين آخرين من مجلس بلدية الموصل وهما أمين المفتي رئيس بلدية الموصل وعبد الرحمن الرمضاني عضو المجلس البلدي وكان مقر هذه اللجنة الدار الواقعة على نهر دجلة بالقرب من دار فتح الله سرسم في محلة باب الطوب وكانت هذه اللجنة تستدعي الفرد وتبلغه بالكمية محسوبة بالكيلو والتي يجب ان يسلمها الى الأنبار من حنطة وشعير وعدس وحمص الانبار واذا امتنع أو أعتذرعن التسليم فأما أن يسجن أو يساق الى احدى جبهات القتال . كان من الطبيعي ان تؤدي الاوضاع المذكورة آنفاً الى شحة المواد الغذائية ومن ثم ارتفاع اسعارها ، حتى أصبح سعر الوزنة من الحنطة المباعة في السوق السوداء بثلاث ليرات ذهبية رشادية (الوزنة تساوي ١٣ كيلو) ، وامسك الجوع بخناق الناس ، واخذت أعداد الموتى منهم تتزايد وتكدست جثثهم في الأزقة والطرقات والدور المهجورة مما سبب تفشي الأمراض السارية المبيدة التي أخذت تفتك بالناس خلال عام ١٩١٧ حتى غصت البيوتات بالمرضى والمقابر بالموتى ، ويذكر الصوفي مشاهد واحداثاً عاشها خلال حدوث المجاعة فيقول من المشاهد المؤلمة والمحزنة والتي ماتزال صورتها مرسومة في ذاكرتي منذ ما يزيد على نصف قرن مضى ، وفي عام ١٩١٧ وانا عائد الى داري شاهدت شخصاً يهرول وهو يحمل كلباً مذبوحاً فهجم عليه رجل آخر وضربه واخذ بحجرة على رأسه طرحه أرضاً واستولى على الكلب المذبوح وفرّ به متجهاً الى شارع نينوى فكان منظراً مفجعاً ورهيباً ... " ، فضلاً عن المأساة الحقيقية والتي مايزال العديد من أبناء الموصل يذكرونها بكل حزن وأسى المجزرة البشرية الرهيبة التي قام بها المجرم السفاح عبود وزوجته عندما قاما باختطاف الاطفال الابرياء وذبحهم وعمل قلية من لحومهم يبعونها في شهر سوق وكان يرمي برؤوسهم في البئر وبعد القاء الشرطة القبض عليهما اخرجت عشرات الجماجم .

لا ينسى الصوفي أن يذكر مساهمات عدد من أبناء الموصل في تخفيف ويلات المجاعة المبيدة التي حلت بهم ومكافحة الغلاء من خلال قيامهم بتوزيع الحبوب على العوائل المحتاجة وفي مقدمتهم الحاج محمد الرضواني ، والمرحوم امين بك الجليلي ، قاسم أغا آل عبيد أغا ، وآل حمو القدو وغيرهم . وبهذه الصفحة الناصعة والخالدة لعدد من أبناء الموصل الحدباء اختتم الصوفي مخطوطه هذا .

عن رسالة (احمد الصوفي دراسة تاريخية)

جعفر الخليلي بين الصحافة والثقافة

مهدي شاكر العبيدي

مثلما يُؤثر عن عباقرة الإنسانية من الكلمات الخالدة التي نطقوا بها عن مراس وخبرة بالناس والحياة ، وظلت متوارَثة من جيل إلى جيل ، ومتداولة بين المفدوحينَ والمرزوئينَ بوقع البليَّات والمصائب ، ويلجأونَ إلى التعلل بها عسى أنْ تنجدهم ببعض الغِياث منها ، وتسلمهم إلى حال من الصفو وهَدوء البال ، أثرَ عَن قلة من جهابذة العقل العربي وأساطين الثقافة العربية - في غير عصر ومرحلة من تاريخها - لقياتٌ حقها تمثيل عصارة وخلاصة لمجمل ما أوفوا عليه من نتاج فكري وخلصوا له من دروس وعظات ، جرَّاء امتحانهم بالشدائد والصعوباتَ ، وبالإمكان سلك الكاتب العراقي الراحل جعفر الخليلي في عداد هذا النفر المتفتح الذهن ، والذي يوجز ما تعلمه طوال عمره واستقاه من عبر نتيجة ما مرَّ به من محن وعرض له من خطوب ، واستفاده وتأسَّى بهِ من فجائع ومآس تنوب حياة الآخرين ، قلتُ يوجز كلَّ هذه المخَاضات ويودعها كلمات قليلة غير أنَّها وافرة المعنى ومكتنزة بالمقصَد الدال والوثيق الصلة بما ابتعثه وحُملَ عليه من موحيات وواعٍ ، ومن قبيل ذلك قوَله أو بما معناه : إنَّ المرء يُحوجه عمران ، عمرٌ يمضيه في تجارب واختبارات ، وآخر يختصُّه بالعيش ، وتخلو حياته فيه من الكدر والهم ، وتنتفي منه الأتراح والأحزان ، ويقطعه بنجوة من التعرُّض لشرور بني الإنسان جهد ما يستطيع .

قد لا تكون عبارة الخليلي - المركزة والمستوفية لغرضها - منسكبة ومجراة بنفس ألفاظها الدقيقة كما في قولنا المفترض ، لكن بوسعي الإحاطة بما تبغيه من معنى وترمي إليه من غاية ، وعاذري أنَّي أرجع إلى الذاكرة وأتوسَّل بها - قدر الإمكان - في الكتابة ، فمراجعي ليستْ بيدي في ديار الغربة التي استدعتني لاستذكار جعفر الخليلي الذي ابتلي بها في الشوط الأخير من حياته ، حتى قضى فيها ورحل عن هذا العالم ، مستريحاً من أوصابه ومناكداته ، هو الذي حيي مجانباً للبشر فيما ينخرطونَ فيه من جمعيات وأحزاب ، ويشتجرونَ حوله من أفكار ومبادئ ، ويغرقونَ في قعره من لدَد وخصومة في سبيل ترجيح رأيهم على رأيَ نظرائهم ، وإثبات أنَّه أنصع وأفيد لترقية مجتمعهم ، وأنَّ عامة الناس ترنو لوضعه موضع التطبيق ، كي تستقيم حياتها ويتحسَّن وضعها المعيشي ، ويُستهَل هذا السجال الكلامي في البدء بأناة وتؤدة ، وبمبعدة عن الخدش والتجريح وإيذاء الشعور ، ثمَّ يعدوها إلى التراشق بنابي الألفاظ ، فيمسك المتناظرونَ والمتناحرونَ من كلا الطرفين عن ليذاهم بالحجج والدلائل ، ويغادرونَ موضوعيتهم وترصُّنهم إلى الوقوع بشيء من الإسفاف واللغو ، لا فالخليلي اتخذَ لنفسه موقفاً متحفظاً محترساً من الانتماء إلى الجمعيات والاتحادات الأدبية والأحزاب السياسية أيضاً ، والتي يصدع بتعليماتها ويستهدي بإرشاداتها رعيل من منتسبي تلك الهيئات والتشكيلات الثقافية ، وآلى على ذاته من يوم أنْ مارس المهنة الأدبية والصحافيةَ أنْ يتباعد عنها ، ليقينه الشخصي بقلة جدواها في معاونة الأدباء على تذليل العوائق والمثبِّطات التي تعترضهم وهم في أوَّل الطريق من مزاولتهم أو ممارستهم الأدبية ، وإلا فـ (جمعية الرابطة الأدبية والعلمية) التي تأسَّستْ في النجف الأشرف في بداية ثلاثينيات القرن المنصرم ، وتنادى للانضمام إليها سائر الكُتَّاب والشعراء المعروفينَ ، وعُهدَ عنها نشاط أدبي فائق وجمٌ ، وانعقدَتْ بفضل مؤسسيها الأوائل محافل ثقافية عديدة ذات أصداء مدوية في البلدان العربية كافة ، على سبيل الانتصار لفلسطين والجزائر مثلا ، أو الاحتفاء بقدوم بعض رموز الثقافة وأعيان الفكر وأعلام السياسة وإلمامهم بأرض الغري ، كانتْ على مقربة منه ، وتعاصى على أنْ تحتويه لا سيَّما أنَّ صلاته وأواصره بأقطابها وأركانها ووجوهها الأماثل على تمام الاستحكام والوثاقة .

لكن ذلك لا يعني بحال أنَّه عَدم المبادئ، والمبادئ السياسية هي ما نقصد ، وهذا قد يذكرنا بما اشتجر بينَ الأفراد غبَّ يوم تموز ١٩٥٨م ، من شجار وعراك أثناء تجمُّعهم واحتشادهم في المنتديات والمقَاهي ، فهذا يدل بمعارضته للنظام المدَال منه ، ويفتخر باستهدافه في السابق للسجن وفصله من الوظيفة أو انقطاعه عن الدراسة ، وذاك مُلجَمٌ لا يحيرُ جواباً لتعييره بخنوعه وإذعانه للسلطات في كل ما تشاءُهُ مَن تدابير وإجراءات ، إلى أنْ حسمَتْ جريدة (الزمان) - لصاحبها الموصلي توفيق السمعاني - هذه المنازعة المحتدمة حول لا شيء ، بأنْ قالتْ كلمتها الفصل بأنَّ الفرد الذي كان مؤدِّياً لواجباته بنزاهة وتجرُّد ، وينجز العمل المنوط هو بهَ بإخلاصَ وكفاية وتعفف عن الارتشاء والارتزاق ، يستَّوي فيَ مواطنَته هو والذي شارك في التظاهرات الوطنية وقاومَ رجال الشرطة ! .

ويبدو أنَّه حسناً فعل بمجانبته الأوساط الأدبية وما يدور فيها من مزايدات بخصوص الاستئثار بالنبوغ والألمعية والصِّيت الأدبي ، حيث يصطف مَن يُدعَونَ أصحاب المَواهب في شُلل تجمع على تزكية نتاج هذا الروائي أو ذاك ، وترشيحه لاستحقاق جوائز العالم ، ومقاربته في تصويره للميول والعواطف ، وتساميه في تعبيره المصقول ومتانة لغته وسلاستها معاً لتضاهي أعمال أشهر الروائيينَ إنْ لم تبذها أو تتفوق عليها ، ومقابل ذلك تتواطأ نيَّاتهم وأهواؤهم على إخمال سواه وتجاهله وغض النظر عنه ، لتجافيه وإحجامه عن المثول في ملتقياتهم ، وعدم استدلاله بأسمائهم وترَّهاتهم وأدوارهم في الحياة الأدبية الراهنة ، حينَ تطلب منه وسائل النشر حديثاً أو تضيِّفه ، فيعقب ذلك أنْ يشتطوا أكثر ويدنِّسُوه .

وكان الخليلي متعدد الاهتمامات ، متوزع النشاطات في الحقول الأدبية والتاريخية ، فقد عُرفَ بكونه كاتب قصَّة ورواية ، شأنَ أنداده من الأدباء المشغوفينَ والكلفينَ بهذا الفنِّ الأدبي ، الذي يخاله بعض الدارسينَ طارئاً وجديداً في اهتماماتنا الأدبية ، قبسناه من أوربا القرن التاسع عشر أو قبله ، إثر انفتاحنا على ثقافتها ومأثوراتها في هذا الباب ، ولم نتحَرَّ أنَّ له أصولاً وجذوراً ما في موروثاتنا القديمة ، لكن حسبه أنْ ترسَّم التقييدات والمراسم التي يلتزم بها سواه من كُتَّاب ما بين الحربينِ في البلدان العربية ، قبل أنْ تتسلل إلينا موجات الحداثة فيهرُفُ مثقفونا ونقدتنا بـ (الدايلوج ، والمونولوج)، ويسهونَ عن أنَّ لهذا الضرب من الصنيع الأدبي أصولاً وقواعدَ ومواصفات لا محيص من رعيها والإذعان لشرائطها ومقتضياتها ، فلا يحسن أنْ نغفل البداية والعقدة والنهاية المؤذنة بالانفراج ، ونفرِّط فيها جميعاً .

وكانتْ لغته في منجزاته وأعماله القصصية والروائية متدفقة وسلسة ورشيقة ، بحيث لا يدانيه أحد في تشويقه القارئ واجتذابه لينهمك في اجتلائه وقراءَتَه ومتابعته خواتيمَ ما يصنعه أو يتصوَّره لـلأفراد من مصائرَ ونهايات ، ولا نقول (الأبطال) خطأً ، كما يعمد لذلك مَن ينتحلونَ الدراية والمعرفة بأسرار الفنِّ القصصي ونقده ، ويجيزونَ وسم الإنسان المحبط والمنكسَر والمخفق الفاشل في جميع مشروعاته لتكوين نفسهِ وصنع مستقبلهِ بالبطل .

وأذكر أنَّي وقفتُ فيما مضى عند رواية منسية له بعنوان (الضائع) ، ومدارها على امرئٍ افترق عن ذويهِ وغاب عنهم زمناً وجاب بعض الجهات والمناحي ، فحسبوه ميتاً ويئسوا من عودته واستئناف صلته بهم ، لكنَّه ظهر بينهم فجأة أو استدلوا على مكانه بطريقة ما ، واستغربْتُ وقتها - وكنتُ في سن غريرة - أنْ يحيط الكاتب بمعلم تاريخي في مدينتنا - طويريج - يدعى (خان الوقف) ، أويَ إليه بطل الخليلي المخيَّب المضيَّع إذا جاز لنا مجاراة النقدة ومشايعتهم في نعت الحزانى والمخيَّبين بالأبطال ، وزايلني الاستغراب حين علمْتُ بعد سنين أنَّ الخليلي اشتغل ع فيها معلماً في مدرستها الابتدائية في بداية تأسيس الدولة العراقية ، وكانتْ له يد في رعي أبناء بعض الأسر التي ضيَّفتها المدينة بحكم توظف أربابها في دوائرها ، ويفع أولاء الفتية وصاروا من أصحاب الشأن في الجيش وغيره .

كما وقفتُ أيضاً على رواية ثانية له طويلة ومشهورة هي (في قرى الجِن) ، وفيها منَ الخيال ما لا يُصدَّق أو يتصوَّر وقوعه أحد ، غير أنَّ الراوي يلقي في روعك أنَّ كلَّ وقائعها حدثتْ فعلاً ، ويوهمك باستطراده السلس وأدائه القوي والنضَّاح بالجدية والصدق أنَّ فصولها جميعاً أبعد عن الاختلاق والافتعال والزعم ، ومدارها حول رجل تسلل رهط من الجنِّ إلى مخدعه عشيَّة عُرسه ، واختطفوه وواروه في عالمهم ، وترك زوَجَه تتلهَّف عليه وتأمل عودته في يومٍ ما ، ومن هناك - في عالم الجن - يوافي بعضَ محبيهِ برسائله ، ذاماً فيها أحوالنا الاجتماعية ، وما يسودها ويتفشَّى فيها من غمط الحقوق واختلال القياسات في كلِّ شيء ، خلافاً لما ينعم فيه ساكنو عالم الجن من حياة موفورة سابغة ومفعمة بالسواء والعدل ، ولا يفوته أن يعرِّجَ على أوضاعنا الأدبية والثقافية ، وما يطغى عليها من المؤثرات والعلاقات الشخصية في تبريز هذا الكويتب الماحل الجديب وتلميع صورته للتصدُّر على رأس الحركة الأدبية ، فهذا الصنيع الأدبي يندرج في قبيل النقد الاجتماعي ، والمعني بتشخيص ما ابتلينا بهِ جرَّاء كوارث الأمس ، وما أجلبتْ به علينا الحقب التاريخية الماضية من الويلات والمآسي ، وكأنَّه ينحي باللائمة على المسؤولينَ والقابضينَ بالزمام لتوانيهم في تقديم الإصلاحات والتصدي للآفات الثلاث

أذكر أنّي وقفتُ فيما مضى عند رواية منسية له بعنوان (الضائع) ، ومدارها على امرئ افترق عن ذويه وغاب عنهم زمناً وجاب بعض الجهات والمناحي ، فحسبوه ميتاً ويئسوا من عودته واستئناف صلته بهم ، لكنّه ظهر بينهم فجأة أو استدلوا على مكانه بطريقة ما ، واستغربْتُ وقتها - وكنتُ في سن غريرة - أنْ يحيط الكاتب بمعلم تاريخي في مدينتنا - طويريج - يدعى (خان الوقف) ، أويَ إليه بطل الخليلي المخيَّب المضيَّع إذا جاز لنا مجاراة النقدة ومشايعتهم في نعت الحزانى والمخيَّبين بالأبطال

: الفقر ، والجهل ، والمرض ؛ بالاستئصال والاجتثاث إنْ لم يكونا بصورة كلية فليحدُّوا منها ويحجِّموها ، فدعوته لتضافر جهود الأكثريات من أبناء الوطن المبتلى بالسوءات والكرائه ، والمنكوب بما تمتلئ به صدور قاطنيه من الإحباط واليأس ، كي يفعلوا شيئا على سبيل تخليصه وإنقاذه من وهدته التي ترامى إليها وارتكس فيها ، هي دعوة قديمة تبنتها الأحزاب ، وصدع بها أقطابها على اختلاف مشاربهم ونوازعهم ، يستوي فيها مَن كان جاداً ومتفانياً دونها ، ومَن خفَّ لها قناصاً جارياً وراء طريدته كي يحوز الوجاهة ويظهر في المحافل ، لكنَّ الخليلي صدف عن مشاكلة رجال الأحزاب وما يأخذون به أنفسهم من المسالك والتصرُّفات ، وإنْ غشي مجالس نفرٍ منهم ، وحاور بعضهم بصدد قضايا فكرية صرف ، ومن ذلك حضوره المتكرر مجلسَ السياسي الوطني كامل الچادرچي أثناء سني انقطاعه عن العمل الصحفي بعد الـ ٥٤م ـ أو قبيلها ، وتهيُّؤ الچادرچي لتأليف حزب المؤتمر إثر اصطفافه بأركان حزب الاستقلال ، وفي هذا المجلس اكتشف الخليلي ولع الچادرچي بهواية الرسم لحدِّ البراعة والتفنن في تلوين لوحاته وتجميلها وتقشيبها .

وهناك حكاية قد تناقض في واقعيتها علاقته بالچادرچي ، غير أنَّهما قد تتماثلان في الوصول لنفس النتيجة ، وهي جنفه وزهده في غشيان محافل السياسيين وتجمُّعاتهم ، إذ لم يرَ ولا مرَّة واحدة في حياته السياسي العريق ورئيس الحكومة العراقية جميل المدفعي ، واتهم في عهد وزارته في العام ١٩٣٤م ، بتأليبه العشائر على الانتفاض عليها ، على نحو ما جرى وقتذاك من تبادل الأدوار بين بعض السياسيين لزرع الفتن وخلق المشاكل ، ويقول الخليلي : إنَّ ذلك الاتهام كان ظالماً وملفقاً ومجحفاً بحقه ، غير أنَّه فوجئ بعد ثلاث وعشرين سنة مرَّتْ على هذا الحادث بمكالمته له بواسطة الهاتف ، إنَّه شديد الإعجاب بما احتواه كتابه (كنتُ معهم في السجن) من شروح لحال ثلة من المساكين أودى بهم سوء الحظ وأسلمهم إلى السجون ، وهذا يستدعينا أنْ ننوِّه أو نفصِّل في تطوع الكاتب الخليلي لزيارة سجن بغداد المركزي في موقعه القديم من الباب المعظم ، ولبثه فيه مدَّة متنكراً بعد استئذان إدارته وحصولَ الموافقات ، فاكتنه أسرار ساكنيه ، ونفذ إلى دخائلهم ، وتعرَّف على ألوان من أطوار حياتهم ، وعكف من بعد على روايتها وتدوينها ، وهم موطونونَ ذواتهم على اجتياز محنتهم ، وتحمُّل هذا الضرِّ القاسي ، والاصطبار عليه بانتظار الفرج ، فلا غرو أنْ استهوتْ فصول هذا السفر الممتلئ بالكروب والأشجان نفس ذلك السياسي الداهية ، والذي يُجَاءُ به ليرأس الحكومة كلما عصفتْ بها الهزاهز والخطوب ، على أنَّه مهدِّئ الأوضاع والداعي لإسدال الستار على حوادث الماضي ، لولا أنَّه لم يتوانَ في استعمال البطش والقوَّة حيال الرهائن السياسيين صيف ١٩٥٣م ، لكن حسبُنا أنْ ننصَّ على أنَّ كلَّ إنسان لا يخلو من دلائل الانتخاء والمروءة ! .

ومن بين مأثوراته القمينة بالإعجاب تلك الأجزاء المتعددة من كتابه (هكذا عرفتهم) ، بخصوص أشخاص اتصل بهم وأعجب بسيرتهم وحسن تعاملهم ، وأنَّهم عاشوا لغيرهم أكثر ممَّا عاشوا لأنفسهم ، إلى أنْ غيَّبهم مفرِّقُ الأحباب وهادم اللذات ، فندبهم وظل يبكيهم ، منهم مَن شَهُر بدعوته للتجديد في تدريس العلوم الدينية والفقهية ، ومَن أجمع الناس على تمسُّكه بأفكاره السياسية وأعجبه منه مرونته واعتداله وتجرُّده من المغالاة والتطرُّف ، وكذلك منهم الذين نبغوا في الأدب والطب واستكبروا على المراتب والمناصب إنْ لم يوقفوها ويطوِّعوها لخدمة الآخرين ، وتناولتْ هذه الفصول المنزوعة من أمكنتها في الصحف والدوريات لتنتظم في كتب تصدر متتابعة ، سيَراً وحيوات ومواقف ممَّا يستجدُّ في بيئاتهم من صروف ودواه ، أمثال : السيد (أبو الحسن) الأصفهانيِّ ، عبد الكريم الجزائري ، محمد حسين آل كاشف الغطاء ، هبة الدين الشهرستاني ، محسن الأمين العاملي ، محمد رضا الشبيبي ، أعيان الأدب والثقافة المعروفينَ آنذاك ، أمثال : الشيخ علي الشرقي ، الحاج عبد الحسين الأزري ، مصطفى علي ، محمد علي كمال الدين ، محمد صالح بحر العلوم ، موسى كاظم نورس ، جهاد العبايچي ، عبد المجيد لطفي ، محمود شوكت ، وغيرهم ؛ ويضع بين أيديهم موضوعاً يستحق النقاش وتبادل الآراء حوله ، وينبري بدوره لإجمال ما دار في الندوة هذه من وجهات نظر شتى ، ليطلع به ريبوتاجاً على قرَّائه في اليوم التالي ، قلتُ بوسعي استجلاء الباعث على مغادرته النجف ، فألفيه ماثلاً بما منِّي به من بعض الإيذاء وتجريح الشعور لتأييده نداء المصلح محسن الأمين العاملي ، وإهابتَه بالناس أنْ يطرحوا بعض العادات التي يعيبهم بها الأغراب من لطم الصدور بالأيدي وضربها بالسلاسل في يوم عاشوراء ، فهذا الطقس لم يأتِ به الإسلام ولا يجبرهم على إلحاق الأذى بنفوسهم ، هكذا بهذه البسائط من الجمل التي ساقها الخليلي في غير مقالة ، حصلتْ المنافرة بينه وبين الوسط النجفي ، الذي يستفحل فيه نفوذ المحافظينَ وتعلو كلمتهم ، فباينه ! .

وأخيراً فلنحط بمحتويات أثرين نفيسين ومنسيين لجعفر الخليلي ، أولهما كتاب (حولية الهاتف القصصية) الصادر صيف عام ١٩٤٩م ، يضمُّ قصصاً وحكايات شتى كتبها : عبد المجيد لطفي ، صفاء خلوصي ، شالوم درويش ، محمود تيمور ، يوسف السباعي ، جميلة العلايلي ، سعيد عبدة ، وغيرهم من أعلام هذا الفنِّ الأدبي في العراق والوطن العربي ، وهو في الحقيقة العدد الخاص السنوي المكرَّس للقصة ، لكن شاء هذه المرَّة أنْ يخرجه كتاباً ، وتروقني منه هذه الصور القلمية الرشيقة التي سطرها قلمه للتعريف بشخوص المسهمينَ بهذا لكتاب .

وثانيهما عن التمور وتاريخ النخلة العراقية التي تشتمل ترابة هذه البلاد العدد الأوفر منها دون بقية الأمصار ، كلفته بتأليفه (جمعية التمور) في غضون عام ١٩٥٧م ، جاعلة منه محض إعلان ودعاية لما تتاجر به وتبيعه للدول ، وما درَّتْ أنَّه غدا سفراً متداولاً بين الدارسين ، ومصدراً معتمداً للوقوف على تاريخ زراعة النخيل في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية التي حظيَتْ هي نفسها باحتوائها لمجلدات جريدة (الهاتف) كاملة بعدد السنوات العشرين التي صدرتْ أثناءها ، فقد ابتاعتها منه مكتبة (الكونجرس) بمال مجز ، استعان به في تصريف شؤونه وتلبيةً حوائجه خلال سنوات مكثه بدول الخليج ، حيث أوصى أنْ يُدفنَ في أيِّ بقعة من بلاد المسلمينَ ، كما أفضى لي بهذا الأديبُ الراحل محمود العبطة .

الخليلي متحدثا مع السفير التونسي محمد الحبيب

مع احمد الصافي وناجي جواد الساعاتي

نبذة تاريخية عن صحافة الاطفال في العراق

عماد شريف

بدأت الصحافة العراقية عام ١٨٦٩ مع صدور اول عدد من جريدة الزوراء. بعد هذا التاريخ وبما يقرب النصف قرن ظهرت صحافة الاطفال متمثلة بـ:

١- مجلة التلميذ العراقي:
لصاحبها سعيد فهيم التي صدر عددها الاول في تشرين الاول عام ١٩٢٢ وهي مجلة مدرسية تهذيبية اسبوعية موجهة الى تلاميذ المدارس والشبان الصغار، وكان مصطفى علي افندي، المدرس بمدرسة تطبيقات دار المعلمين مدير ادارة المجلة من العدد الاول وحتى العاشر منه. جاء بعده محمود حلمي الذي استمر في مهامه لمدة عام، ثم توقفت المجلة عن الصدور بسبب قلة الدعم المادي.
في عام ١٩٢٤ عاودت الصدور مجدداً وتولت جريدة العراق نشرها وكان مديرها سعيد فهيم ايضاً وقالت عن نفسها انها "مجلة تهذيبية اسبوعية مصورة".
والصدور الثاني لم يستمرهو الآخر طويلاً. قسمت صفحاتها إلى ابواب منها (الدنيا وما فيها، حديقة الادب، معرض المشاهير، العناية بالصحة، سؤال وجواب، مسابقات)، كتب فيها (هاشم الآلوسي، روفائيل بطي، عبد الرزاق الحسني، الشيخ محمد رضا الشبيبي، والشيخ محمد مهدي البصير، عزيز سامي، فاضل الجمالي وآخرين). كانت تحمل طابعاً تعليمياً عرضت موضوعات تتعلق بالمناهج الدراسية وخاصة العلوم الطبيعية، ظهرت بحجم قريب للكتاب، والنسخة الواحدة تباع في الاسواق بثلاث عانات.

٢- مجلة الكشاف العراقي:
صاحبها محمود نديم صدرت في ١٥ حزيران عام ١٩٢٤ وهي مجلة علمية ادبية تهذيبية تحتوي على كل ما يهم الكشاف من موضوعات علمية وعملية استهدفت نشر حركات الكشاف والعمل على نهضتها في العراق وكانت نصف شهرية صدرت لبضعة اعداد ثم توقفت وعاودت الصدور ثانية عام ١٩٢٦ وتوقفت ثانية. اهتماماتها انحصرت بتعليمات ونشاطات الكشافة في العراق والعالم مثل، اصول تشكيل الفرق الكشفية، نصب الخيام، اقامة المعسكرات الكشفية، الالعاب الكشفية والرياضية والاسعافات الاولية. اضافة الى الابواب الثابتة (اخبار كشافة الوطن، بين المجلة وقراءها).

٣- مجلة المدرسة:
اصدرها محمود نديم ايضاً الى جانب الكشاف العراقي صدر عددها الاول في ١٥ آيار عام ١٩٢٦. قالت عن نفسها انها مجلة شهرية تبحث في العلوم والموضوعات المدرسية للبنين والبنات نشرت موضوعاتها بدون ذكر اسم كتابها كما نشرت نتاجات التلاميذ آنذاك ومنهم (الصحفي عبد اللطيف حبيب، محمد حسين الشبيبي). صدر منها بضعة اعداد وتوقفت مع توقف مجلة الكشاف العراقي. وعمل محمود نديم على إظهار عدد من نسخ المجلتين في غلاف واحد تحت اسم (المدرسة والكشاف العراقي).

٤- مجلة الطلبة:
لصاحبها عباس فضلي خماس صدرت في كانون الثاني عام ١٩٣٢ وهي مجلة اسبوعية ثقافية علمية للبنين والبنات. ابوابها الثابتة كانت (علوم وفنون، مخترعات، حياة الحيوان والنبات، ثمار الاقلام اليانعة، لكل سؤال جواب، صحيفة الطالبات، قصة العدد، ديوان الطلبة، الالعاب الرياضية). وقبل ان تكمل عامها الاول توقفت عن الصدور، ومما يؤاخذ عليها انها لم تستعن بالصور والرسوم.

٥- مجلة صندوق الدنيا:
صدرت في نيسان عام ١٩٥٩ لصاحبها حميد المحل وصفت نفسها بأنها مجلة (الطالبة والطالب) وانها اول مجلة نوعية في العراق فيها العجائب والغرائب والجد والهزل وكل ما يفيد ويثقف. ابوابها الثابتة كانت (صندوق الاولويات، تاريخ العراق في صور، سؤال وجواب، قصص الانبياء، اعرف بلادك، مسابقات). مضمونها كان يحرض الاطفال ضد الاستعمار. واحتوى كذلك على قيم اخلاقية واجتماعية.

٦- مجلة المدارس:
دورية اصدرها الصحفي هاشم الخياط في النصف الاول من عام ١٩٦١. وتم ادخالها الى المدارس بأمر من وزارة المعارف. ومن ابوابها الثابتة (طالعت لك، بطولات عالمية، اعرف بلادك، محفوظات مختارة، اقلام الطلبة). وتميزت هذه المجلة بأنها كانت اكثر التصاقاً بأخبار الطلبة في المدارس.

٧- مجلة مجلتي:
شهرية للاطفال اصدرتها الشركة الوطنية للصحافة (قطاع خاص) في نيسان ١٩٦٣ لم يصدر منها سوى عددين تضمنا قصصاً وسيناريوهات ومقالات لتنمية قدرات الاطفال العلمية واخرى عن العلوم وتوقفت، ويذكر احد المؤلفين ان وزارة المعارف طلبت من صاحبها التوقف عن الصدور لانها قررت اصدار مجلة خاصة بالاطفال تراعي الأسس والاعتبارات الخاصة بالكتابة للاطفال، ورغم ان المجلة توقفت عن الصدور إلا ان وزارة المعارف لم تصدر المجلة التي وعدت بها.

٨- مجلة الف ليلة وليلة:
شهرية اصدرها سامي الربيعي في كانون الثاني عام ١٩٦٤. تضمن محتواها قصص وحكايات وتقارير صحافية. طبعت في الاوفسيت وازدانت صفحاتها بالرسوم. وزارة المعارف قررت السماح لهذه المجلة بالدخول الى المدارس وبعد فترة اوقفت العمل بقرارها فواجهت المجلة صعوبات مالية اضطرتها الى التوقف بعد بضعة اعداد.

٩- مجلة الظريف:
اسبوعية صدرت عام ١٩٦٨، صاحبتها ورئيسة تحريرها رابحة الجميلي، وصفت نفسها بأنها المجلة التي تعلم وتهذب وتسلي بإسلوب نظيف، من ابوابها الثابتة (رحلات الظريف، سمعت وقرأت، مذكرات الطفل، فكر واربح، الرياضة، وسيناريو العدد). ورغم قلة الاعداد التي صدرت منها إلا ان اسلوبها كان مشوقاً ومؤكداً على قيم العمل والرفقة والإلفة.
مما تقدم يتضح ان جميع تلك المجلات صدرت بمبادرات شخصية، اما المبادرات الرسمية فإنها لم تأت إلا متأخرة.
ومما يؤاخذ عليها هو عمرها القصير وصدورها المتقطع.

رفائيل بطي

الشيخ محمد رضا الشبيبي

الشيخ محمد مهدي البصير

فاضل الجمالي

من بومبي الى بغداد

مشاهدات ديفيد ج. ڤيرتشايلد المستكشف الزراعي الاميركي

◁صدرت مجلة الناشيونال جغرافيك لاول مرة في تشرين الاول عام ١٨٨٨ ، كمطبوع يوزع على اعضاء الجمعية الجغرافية الوطنية في واشنطن ، وفي عام ١٨٩٦ اصبحت المجلة شهرية وعامة ، وفي رحلتها الطويلة نشرت ناشيونال جغرافيك العديد من المواضيع عن بلاد مابين النهرين ، ونقدم هنا اول موضوع نشر بهذا الخصوص في العدد الرابع عام ١٩٠٤ ، وهو وصف للمستكشف الزراعي السيد ديفيد ڤيرتشايلد الذي عمل على نقل فسائل نخيلنا الى اميركا لتعيش هناك برشاقة جذوعها العالية وحنين سعفاتها لضفاف دجلة ،، سوف اقدم لكم في اوقات لاحقة تراجم لكل مانشر عن بلادنا في هذه المجلة الواسعة الشهرة ، منذ بداية القرن العشرين حتى عام ١٩٩١ يوم انقطعنا عن العالم ،، لنقرأ سوية حكاية الارض التي نعيش فوقها من خلال يوميات الرحالة الجغرافيين الذين جاؤوا هنا لاسباب شتى ربما من بينها البحث عن سحر ايامنا الخوالد.◁

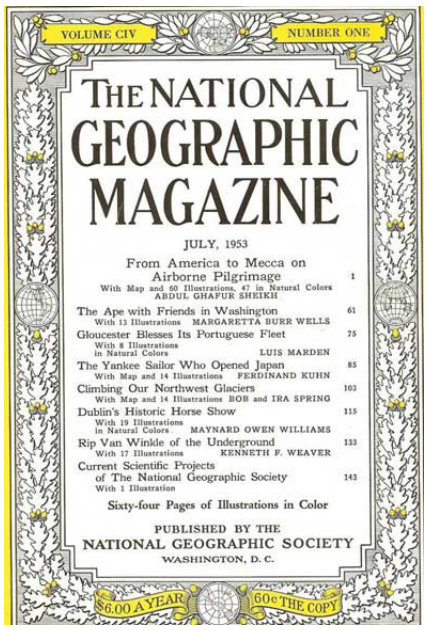
VOLUME CIV NUMBER ONE

THE NATIONAL GEOGRAPHIC MAGAZINE

JULY, 1953

From America to Mecca on Airborne Pilgrimage 1
With Map and 60 Illustrations, 47 in Natural Colors
ABDUL GHAFUR SHEIKH

The Ape with Friends in Washington 61
With 11 Illustrations MARGARETTA BURR WELLS

Gloucester Blesses Its Portuguese Fleet 75
With 8 Illustrations in Natural Colors LUIS MARDEN

The Yankee Sailor Who Opened Japan 85
With Map and 14 Illustrations FERDINAND KUHN

Climbing Our Northwest Glaciers 103
With Map and 14 Illustrations BOB and IRA SPRING

Dublin's Historic Horse Show 115
With 19 Illustrations in Natural Colors MAYNARD OWEN WILLIAMS

Rip Van Winkle of the Underground 133
With 17 Illustrations KENNETH F. WEAVER

Current Scientific Projects of The National Geographic Society 143
With 1 Illustration

Sixty-four Pages of Illustrations in Color

PUBLISHED BY THE NATIONAL GEOGRAPHIC SOCIETY
WASHINGTON, D. C.

$6.00 A YEAR 60c THE COPY

ترجمة: خالد مطلك

هل الجنائن المعلقة في ارض بابل أعيد بناؤها ، وهل بعث الكلدانيون من جديد ؟ قلما تطرأ أسئلة من هذا النوع في بال عموم الأميركيين ، ومع ذلك فأن مهندس الري الخبير السير ون . وولكوكس (مهندس ري بريطاني ١٨٥٢-١٩٣٣) الذي يعمل في وادي النيل ، اعلن مؤخرا بعد فحص وتتبع منظومة قنوات الري القديمة في ارض بابل ؛ "سيأتي ذلك اليوم على هذه المنطقة العظيمة ، حين كانت في زمن مضى واحدة من أغنى بقاع العالم وأضحت اليوم قفراء مجدبة ، ربما سنشهد اعادة إعمارها لتتحول بسرعة فائقة الى بلد غني بالزراعة ، كما هو حال مصر اليوم" ،

الهدف من رحلتي يتعلق بمهمة الوصول الى ارض بابل ، ومعاينتها عن كثب ، بغية تأمين حاجة حدائق النخيل الاميركية في أريزونا بأفضل انواع التمور العربية والخليجية ، لذلك تحمل السيد باربور لاثروب من شيكاغو نفقات سفري، بصفته مستكشفه الزراعي الى بغداد ، في بلاد ما بين النهرين ، المنطقة التي عرفت كأكبر مكان لنمو النخيل في العالم ، وليس من باب المبالغة اذا قدرعدد نخيلها بعشرة ملايين نخلة باسقه ، والتي تتحشد في غابات شاسعه ، تبدأ من ثغر الخليج حتى تخوم بغداد ،

ومع ان مهمة المستكشف الزراعي الرئيسة ، تتلخص بجمع المعلومات عن النباتات التي تنمو في هذه المنطقة ، لكن المشكلات السياسية العامة لم تخفق في التأثير عليه ، خاصة تلك المشكلات التي تطرح نفسها بقوة وذات الصلة باهتمامه بمنطقة الخليج ، حيث في عقول أبنائها انفسهم هناك اعتقاد راسخ ، بانها ستكون مركز اهتمام العالم ، وان مستقبلها مفتوح على احداث ربما تكون حافلة .

الرحلة من بومباي الى البصرة على متن الباخرة (بيمبا) والتي تبلغ حمولتها الف وخمسمائة طن ، تستغرق ثلاثة عشر يوما ، بما فيها التوقفات القصيرة على جهتي سواحل الخليج العربية والفارسية ، تلك التوقفات التي تمنح المرء ومضة عابرة في عمق الصحارى الشاسعة ومشاهدة ذلك المكان المفضل لدى العرب والمناسب لطرائق عيشهم ، كما تتيح هذه التوقفات محادثات عابرة وسريعة مع بعض الموظفين الأوربيين وتجار التمور ، والذين ينفقون

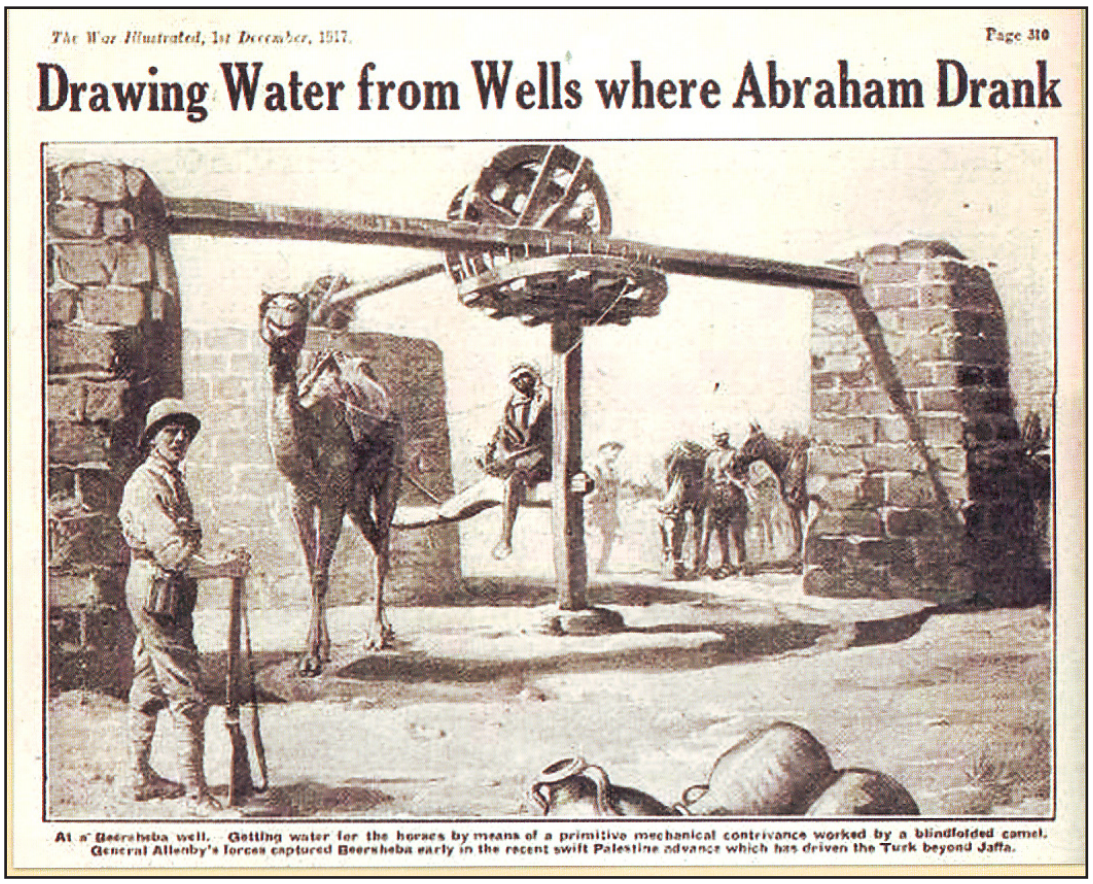
The War Illustrated, 1st December, 1917. Page 310

Drawing Water from Wells where Abraham Drank

At a Beersheba well. Getting water for the horses by means of a primitive mechanical contrivance worked by a blindfolded camel. General Allenby's forces captured Beersheba early in the recent swift Palestine advance which has driven the Turk beyond Jaffa.

حيواتهم في هذا المكان النائي من العالم ، الخليج عبارة عن مسطح مائي يساوي طوله تقريبا بحيرتي هيورتن وميشغان مجتمعتين ، وقد عرف بشواطئه ذات الطيات المنخفضة ، وعواصفه المتعاقبة و حرارة صيفه التي لاتطاق ، والفصل المريح الوحيد من فصول السنة في هذه المنطقة ، هو فصل الشتاء الذي يبدأ من الاول من شهر كانون الثاني ويستمر حتى منتصف شهر نيسان ، وخلال هذه الأشهر يكون المناخ شبيها بمناخ المنطقة الصحراوية في كاليفورنيا ، او المناخ الشتائي في مصر .

وخلال فصل الشتاء يأتي عدد كبير من الزوار المسلمين من مختلف مقاطعات الهند ومدن بلاد فارس ، ينحشرون بين طوابق البواخر بخليط البستهم وامتعتهم الجذابة ، في مشهد شرقي يخيل للمرء وقبل انقضاء اول ليلة معهم، انه يعيش في بلاد الالف ليلة وليلة ، يقوم شيوخ الدين الذين ينظمون حملات الحج هذه الى كربلاء ، القريبة من بغداد ، بظم مجموعاتهم التي عادة ما تتكون من الشباب او الحجاج عديمي الخبرة في دوائر حولهم ، وعلى صوت الإيقاعات الشرقية ، يسردون لهم القصة المروعة للمعركة التي قتل فيها حفيد النبي في كربلاء ، عويل النساء ونحيب الرجال يجعل المشاهد يدرك من الوهلة الاولى ، الحماس الديني لهؤلاء المؤمنين تجاه نبيهم ، وقبل ان يتطوع ضباط الباخرة باخبارك بان مشهد انهمار الدموع على هذه الدراما ، يتكرر مهما كان عدد المرات التي تسرد فيها القصة ، فانك كنت تميل لتفسير هذا المشهد على انه اخلاص كبير وعاطفة جياشة، من مجاميع الحجاج الدائرية التي تستمع للقصة .

كان اول ميناء مهم اعلن عنه طاقم الباخرة هو ميناء مسقط ، المملوك للسلطان شكلا ، ولكنه في الواقع تحت الحماية البريطانية ، حيث رمت الباخرة مرساتها في المرسى الصغير المحاط من كافة جوانبه بضفاف صخرية ، وقدم الكابتن ومهندس الباخرة وصفا لحالة الطقس غير المريحة في فصل الصيف في هذه المنطقة ، وعلى الرغم من ان درجة الحرارة في الظل ليست اعلى من اجزاء اخرى من السلطنة خلال فترة النهار ، لكنها تفوقها بدرجات عديدة اثناء الليل، وتجاوزت درجة الحرارة في الرابعة صباحا ال ٤٣ درجة مئوية كما سجلت في مسقط ، وهذه الحالة ليست نادرة ، وان القليل من الأوربيين الذين حكم عليهم بالعيش في هذا المكان ، نجحوا في جعل الحياة هنا ممكنة نوع ما، عبر تطوير اجهزة صممت خصيصا كمرواح ، تنفث الهواء البارد عبر ألواح من جذور الأعشاب المبللة .

وتعد مسقط كواحدة من مراكز الشحن المهمة لكميات كبيرة من التمور ، التي ترسل عند كل فصل خريف الى الاسواق الاميركية ، وتشاهد في مسقط بعض البازارات المهمة ، وخليط غريب من الأزياء مع بعض المباني الشرقية القليلة ، والتي تجعل من البقاء لفترة قصيرة أمرا لاباس به ، وترتدي النساء في هذه المدينة الأقنعة الاكثر غرابة من تلك التي يمكن مشاهدتها في الشرق ، حيث يجري تصميمها على شكل مربعات غنية التطريز بالحرير والصوف ، وتغطي الجزء الاعلى من الوجه و تترك منطقة الحنك مكشوفة، وبهذا تختلف عن مثيلاتها التي يمكن مشاهدتها في مصر والجزائر مثلا .

التوقف التالي للباخرة كان في الجزء الاكثر انفتاحا في مرسى جزيرة جاسك (Jask) ، التي لا تنطوي على أية اهمية تذكر ، سوى كونها مقرا لمحطة شركة الكابل الفارسية – الأوربية ، ومن خلال هذه المحطة يمر جزء كبير من الاتصالات السلكية في الشرق ، وزيارة لواحدة من محطات التلغراف هذه ، والواقعة خارج العالم ، تجعلك تدرك عدد الرجال المستعدين لدفن حيواتهم من اجل راتب تافه ، في مناطق جرداء مقفرة تماما لولا تلك الشجيرات التي زرعت ورويت يدويا بعناية فائقة ربما لاتحتاجها للنمو في مكان اخر من العالم .

وقريبا من الجانب الاخر ل (جاسك) يضطجع ميناء بندر عباس الذي سمعنا كثيرا عن محاولات روسيا ونوياها لتحويله الى ميناء بحري – عسكري ، وكان (ويكهام) قد أشار في كتابه المهم عن هذا الجزء من العالم (المشكلة الفارسية ، للكاتب هنري جيمس ويكهام ، صدر في ١٩٠٣)، الى ان مرسى بندر عباس يمكن ان يطور كميناء بحري من الدرجة الاولى ، ويبدو ان نظرته هذه يشاركه فيها قباطنة السفن التجارية ، والذي درجوا على عبور ممر الخليج جيئة وذهابا وعلى مدى سنوات عديدة ، ومهما تكون جنسية الدولة التي تسيطر على هذا الميناء ، فمن الواضح انها ستمتلك مفتاح الخليج كما يعتقد المقيمون الأوربيون في هذه المنطقة . وخلال التوقف القصير في

هذه المحطة ، ومن خلال مكالمة هاتفية مع القنصل البريطاني ، اتضح انه ليس لديه مايكفي ليزود الكاتب به ، لذلك فأن اغلب المعلومات السريعة عن الموقف التي تدعم وجهة النظر هذه ، هي من كتاب ويكهام المذكور انفا .

وفي طريقنا عبر الخليج توقفنا قليلا عند جزر اللؤلؤ قبالة البحرين ، هذه الجزر التي تشحن منها كميات من اللؤلؤ الثمين سنويا ، و تشكل مدخلا نحو منطقة الاحساء المهمة، والتي يجري إعمارها بشكل جداً متواضع ، قياسا الى التطور المتسارع الذي يشهده عالمنا الغربي اليوم.

في اسواق الهفوف حصلت على عملة معدنية صغيرة تعادل جزءا من القرش القرمطي المسكوك في القرن السادس عشر يطلق عليها الطويلة (Taweela) صممت لتشبه قطعة صغيرة من أسلاك التلغراف وضرب عليها بالخط الكوفي اسم احد امراء القرامطة ، وبالنسبة لي كمستكشف زراعي فقد كنت في غاية الإحباط ، لعدم تمكني من زيارة الاحساء المشهورة بتمورها على صعيد منطقة الخليج ، وبخاصة تمرها المعروف بـ (الخلاص) الاحسائي ، والذي يتكاثر حول محيط مدينة الهفوف .

يبدو انه من الصعوبة بمكان ، على المسافر ان يتجشم عناء رحلة مضنية على متن باخرة قديمة الطراز ، بحمولتها الصغيرة ، كل ذلك من اجل زيارة لبلاد مابين النهرين حيث تشترط فيها الحكومة التركية عشرة ايام حجر صحي في البصرة ، وان كل من اقام في المحجر التركي (trukish lazarette) لمدة سبعة ايام بمتاعبها ، سوف يكون من السهل عليه العزوف عن فكرة السفر اساسا .

تقع البصرة على شط العرب ، وتحيط بها غابات النخيل الممتدة على مسافة ٧٠ ميل نزولا وصعودا على ضفة هذا النهر العظيم ، لتشكل جانب المدينة الذي يضطجع على ضفة النهر ،حيث تسكن مجموعة صغيرة من الأوربيين الذين يديرون تجارة و شحن التمور ، اما المدينة القديمة للبصرة نفسها فتقع الى الداخل وترتبط مع النهر بواسطة قناة البصرة القديمة ، و يطلق عليها فينيسيا الشرق بسبب القنوات المتعددة التي تنساب فيها القوارب النحيفة لنقل السكان من مكان لآخر والشبيه بالجندولات ، وباشكال القوارب او الأبلام (جمع بلم) وبملابس السكان الجذابة والمثيرة في طريقهم بعجلة وبراعة، يشبهون الى حد كبير مستخدموا الجندولات في فينيسيا ، الألوان البهيجة لهذه القوارب وحمولتها ، والستائر المزركشة وبساتين النخيل ومنازل اللبن بشبابيكها المشبكة تصنع مشهد قناة البصرة القديم الاكثر إثارة وجاذبية ، العدد القليل من الأوربيين الذي يعيشون في البصرة ، اعتادوا تنظيم حياتهم في فصل الصيف على نحو يجعله مريحا نوعا ما ، عبر تمضية عدد من ساعات النهار كلما أتيح لهم ذلك ، في السراديب ، الجزء المعتم في الطابق السفلي من المساكن العربية التي يعيشون فيها ، وعندما يحل الليل فانهم يتمتعون بقسط من الراحة على سطوح تلك البيوت . النادي الاجتماعي وبازياء لاعبي التنس يبدو انه المكان المسلي والممكن الوحيد لأولئك الاوربيين غير المحظوظين ، الذي أجبرتهم الظروف للعيش في هذا المكان المنقطع عن العالم . وتنحسر مهمتهم الرئيسة فيه بشحن التمور ، وفي فصل الخريف تشحن حمولة بعد حمولة من الفواكه التي تزرع في ظل اشجار النخيل ، وترسل الى نيويورك ويفضل شحنها قبل عيد الشكر ، كلما امكن ذلك هناك باخرتان وحيدتان فقط تمخران مياه نهر دجلة التاريخي ذهابا وإيابا ، وربما لم تكونا موجودتين لولا حصول الحكومة البريطانية وقبيل نهاية حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) حق إدامة وتشغيل ثلاثة قوارب مسلحة في نهردجلة من الدولة العثمانية ، وواحدة من هذه البواخر يمكن مشاهدتها حاليا مرصوفه في الجانب الاخر من النهر، قبالة القنصلية البريطانية في بغداد ، اما الباخرتين الاخرتين فهما وبعد موافقة السلطان ، تم استبدالهما بقاربي صيد ونقل مسافرين ، شبيهين بتلك القوارب التي تعمل في نهر الميسيسبي ، وتسيطر شركة لنج إخوان البريطانية ومقرها لندن على تشغيلهما وتجني من جراء ذلك أرباحا جيدة ، عبر احتكارها تقريبا لكامل حركة النقل في نهر دجلة ، تحتاج في احسن الأحوال الى خمسة ايام للسفر من البصرة الى بغداد عبر دجلة ، حيث تيار الربيع العارم ، والمجرى الطويل ، والمنعطفات الحادة ، ورمال ضفتيه المتحركة ، تجعل من دجلة نهرا غير مريح للملاحة ، مع اننا نملك الخبرة الاعتيادية للدوران بشكل كامل في مسارنا من شدة قوة التيار، لكننا ولساعات طويلة من الرحلة ، بقينا نكافح هذا التيار بمحرك الباخرة المتهالك دون تقدم يذكر .

على الرغم من انني من قد سمعت الكثير عنها ، لكن يبدوا ان هذا هو المستوى الطبيعي في بلاد مابين النهرين ، ورحلة في نهر دجلة لخمسة ايام ، لن تكون كافية لمعرفتها جيدا ، بسبب من مداها الواسع ، والتي وصلت إلينا بلغتها المسمارية ، واتاحت لنا قراءة سجلات فواتير القصاب والخياط ، الذين عاشا هنا قبل ستة الاف سنة ، ما تبقى من اثر لقناة النهروان التاريخي ، يمشي تقريبا بشكل موازٍ مع دجله ، ولكنه لا يرى من جانب النهر ، واثبتت التحقيقات الحديثة انه كان يروي في زمن ما ، كل هذه المساحات الهائلة من هذه الارض الجرداء ، وقد بين السير وليام ولكوكس ، بان تآكل وتهدم هذه القناة من جراء تبدلات مجرى نهر دجلة المتعاقبة في السهل الرسوبي ، ربما يكون العامل الاكثر تأثيرا في انهيار مدينة بابل ، ومن المهم قراءة تقديرات هذا المهندس المبنية من خبرته الطويلة في مصر، للنفقات اللازمة لإعادة بناء وتوسعة هذه القناة القديمة لزراعة ملايين الدونمات من طمي النهر الغني وغير المستخدم .

ترتبط بغداد بقصة الف ليلة وليلة بالرغم من بيوتها المتهالكة والمنخفضة ، وشوارعها الضيقة الذي تثير الاحباط لكل باحث عن روعة الشرق ، وعن تلك الايام الخوالي لهارون الرشيد ، انها مدينة مليئة بالمشاهد الغريبة غير المتأثرة بالحضارة الأوربية وتفشل في استدراج اي شخص يبحث عن إحساس روائي في المكان، لكن جوامعها بقبابها المذهبة وبازاراتها بتنوع بضائعها من الحرير والأسلحة الموشاة بالتطاريز ، وآلاف الكلاب التي تشبه تلك الموجودة في القسطنطينية التي تشكل ملامح المكان ، وبالاضافة الى الملابس البراقة للنساء المسيحيات تجعل من البقاء في بغداد أمرا ممتعا للغاية .

في بغداد هناك مستعمرات صغيرة يقطنها مجموعات من الأوربيين من مختلف الجنسيات ، وتعمل ملاعب التنس والغولف على جعل الحياة طيبة ، ومن المحتمل ان تشيد عليها مجموعة اخرى من افضل ملاعب الغولف في العالم و التي ستقام على ركام القرى التاريخية المطمورة ، حيث تقع تحت سطح هذه الارض التي يمارس عليها لاعبوا الغولف رياضتهم ، هياكل عظمية و جرار مدافن البابليين ، ومن غير المستبعد ان يصطدم مضرب لاعب الغولف بعظمة ساق او فقرة من كسرة نصف هيكل عظمي .

وخلال اقامتي القصيرة في بغداد واجهت الكثير من الأسئلة ، التي طرحها للنقاش المقيمون الأوربيون على ارضها ، ومن الطبيعي انها كانت ذات صلة بمشروع خط سكك الحديد الجديد ، الذي يجري الحديث عنه ليربط مدينة حلب بمدينة بغداد وصولا الى الخليج ، واغلب وجهات النظر تداولا ، من تلك التي طرحت امامي على الاقل ، كانت متشائمة . فالناس الذين يعرفون هذه المنطقة غير المأهولة بإعداد كافية من السكان ، التي من المفترض ان تمر بها مئات الأميال من خطوط السكك الحديد ، يتوقعون انه من المستحيل ان يكون هذا المشروع مجديا من الناحية الاقتصادية ، وغالبا ما كرروا أمامي ، ان هذه المنطقة الشاسعة ستحتاج لتنميتها ليس فقط بناء القنوات الاروائية ، ولكن أيضاً ، استقدام اعداد كبيرة من المستوطنين من الهند او من مناطق من الجزيرة العربية لتوطينهم على طول خط السكك الحديد هذا ، ومع انه من الصعوبة بمكان ، ايجاد وسيلة عملية تجعل من المشروع مجديا في الوقت الحالي ، لكن لشخص مثلي على دراية بالكيفية اصبح فيها الغرب العظيم مأهولا بالسكان ، وبالتقدم الذي احرز فيما يتعلق بقضايا الري في مختلف أنحاء العالم ، فان مشروع تأهيل هذه المنطقة بالسكان يعد أمرا ليس خياليا . ولكن تحت شروط الوضع الراهن يصعب تطبيق هذه الخطة بسبب من عوائق التنقل و نظام الضرائب المتبع وال ١٠١ عائق التي تتسم بها قواعد الادارة العثمانية المثبطة بشكل كبير لأي رأسمالي او مستثمر اميركي على الاقل ،

وبالنسبة للمناخ ، في هذه المنطقة غير مأهولة بما يكفي ، وتشبه الى حد بعض المناطق في أريزونا وكاليفورنيا ، فان شتاءها رائع ، والصيف ليس اكثر حرارة من مناطقنا الصحراوية في الجنوب الغربي . التربة الخصيبة فيها تشكل مساحة كبيرة منها ومناسبة تماما لزراعة المحاصيل الثمينة ، والمتوفرة بوضوح في الحدائق المنزلية المثمرة ، وفي واحدة من اكبرها على نهر دجلة كانت مزرعة السيد عبد القادر الخضيري ، حيث وجدت عددا كبيرا من انواع الفواكه والنباتات الاقتصادية قليلة الكلفة ، وبنظرة أولية لكاتب متخصص في الزراعة ، وجدت انه لا سبب يمنع من زراعة هذه الارض بطريقة حيث تمتد على طول جانبي الافق صحراء مقفرة تقريبا ، باستثناء عدة أمتار خضراء حول ضفة النهر ، وتربتها وعلى الرغم من متغيراتها فيما يتعلق بكمية المركب القلوي الذي تحتويه ، فهي جيدة كما هو حال طمي نهر النيل ، والأحجار والصخور فيها صغيرة ولا تتجاوز حجم قبضة اليد ، ومن هذه التربة صنع البابليون الرقم الطينية

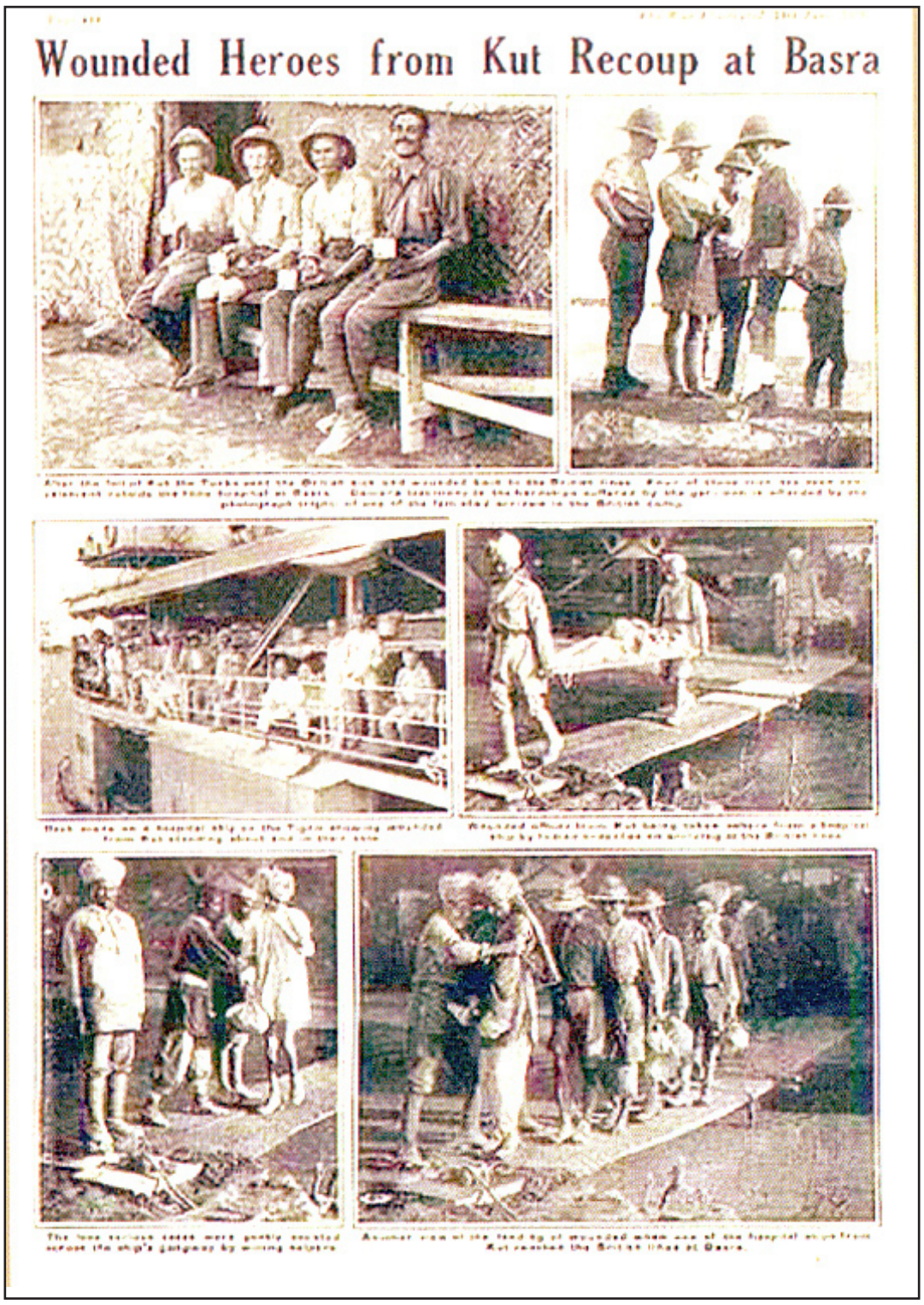

مثمرة بأي من تلك النباتات التي تنمو في وادي النيل وكذلك من تلك التي تنمو في أريزونا وجنوب كاليفورنيا ، وربما تجد صناعة القطن في هذا البلد ، موطنا مناسبا ومتجانسا ، بل ومن المحتمل انتاج نوعية فاخرة من القطن المصري على هذه الارض، اما بخصوص البقع القلوية في التربة فان بعضها بدون شك كبيرة الحجم ، والسؤال عن الإفادة منها ، يعتمد كليا على كمية مياه الري التي يتيحها نهر دجلة ، وبالخبرة المتحصلة من تجربة نهر النيل ، يتبين لنا بشكل قاطع كم هو من السهل غسل ملوحة هذه الارض بطريقة تجعلها مناسبة لنمو محاصيل وفيرة .

في جولة لاسواق القمح في بغداد والبصرة ، اصبح الكاتب على ثقة بأن نوعية القمح الصلب الممتازة يمكن زراعتها وتسويقها أيضاً في هذه المنطقة ، وعلى الرغم من ان الطلب الاقوى هو على الانواع الناعمة ، التي تزرع هنا بكثافة بغية استخدامها في صناعة المعجنات والمعكرونة .

الجت " Alfalfla " هو العلف الحيواني الوحيد الذي يزرع في هذه المنطقة بكثافة ،والذي هو بدون شك الغذاء الحيواني الاكثر توزيعا واستيرادا على مستوى العالم ، واكثر الأعلاف الحيوانية اهمية ، وان زراعة بقعة صغيرة من كل دونم ، تلبي بما فيه الكفاية ، حاجة الطلب المحلي للمنطقة كعلف للحمير وقطعان الماشية الصغيرة ، التي يربيها السكان على طول امتداد ضفتي النهر ، ان شهر نيسان هو الافضل لنمو عشب الرعي في الصحراء ، ولكن حتى خلال هذا الشهر تشاهد صغار الماشية بين فترة وأخرى تقتات على ضفاف النهر ، وهذا مؤشر على افتقار المنطقة للحاجة الكافية من العلف ، لذلك وباية حال لا يمكن المقارنة بين هذه الماشية نصف الجائعة وتلك التي تتغذى من مخزون العلف في حقول الأرجنتين مثلا ، او مع الصفوف المترابطة بأناقة في حقول البرسيم من القطعان الشرقية بمظهرها اللطيف في وادي النيل، ويعتمد رفع سقف مخزون العلف الحيواني هنا بشكل كامل ، على زراعة مساحات كافية من الجت والمحاصيل الشبيهة ، من مثل البرسيم الاسكندراني ، والذي يمكن زراعته هنا بنجاح .

ومن المؤكد بان العديد من حيوانات السباق يمكن اكتشافها هنا من خلال ملاحظة تحملها بشكل يثير الإعجاب لحرارة الصيف الحارقة في هذا البلد .

هناك ملمح واحد يشترك فيه البغداديون ، وهو بحد ذاته صغير نسبيا ، ويشكل مشكلة فعلية لأولئك الذين يعيشون في هذه المدينة الشرقية ، انه " حبة بغداد " Baghdad biol ، هذه الحبة التي تستحق اسما اكثر جدية ، لانها مزعجة وغير مرحب بها ، وكريهة اكثر من مرض الجمرة الذي يصيب الجلد ، وغالبا ما تبلغ دورة حياة هذه (الحبة) نسبا غير عادية ، فقد تستغرق من ثمانية الى تسعة اشهر ، وكل شخص من اهالي بغداد يقول لك " ان آجلا او عاجلا سوف اصاب بها . " والأوربيون والعرب هنا وعلى حد سواء حساسون وعرضة للإصابة بها ، وفي هذا يقول السكان القدماء في المكان ، انهم دائماً يستطيعوا ان يميزوا فيما اذا كان المرء قد عاش في بغداد ام لم يعش فيها ، من خلال الندبة التي تتركها " حبة بغداد " في مكان ما من جسده . ولمعرفة فكرة أولية عن طبيعتها ، توجه الكاتب الى المشفى التركي واستفهم من الطبيب التركي المسئول عن هذه الحبة (الندبة) ، وبعد ان استعرض الطبيب بشكل مهذب جدا عددا من الحالات أعطاني رأيه كما هو ؛ c'est Léans la climat et le salit Monsieur اما رأي الدكتور رامزي الطبيب الانكليزي المقيم في المكان ، فهي مجرد عدوى بكتيرية تنشأ من لسعة او عضة نوع من الذباب المحلي . وراح رامزييستذكر خبرته الشخصية معها ، حيث تعرض شخصيا لعضة من هذه الحشرة في بقعة من ساعده ثم تطورت الى ندبة ، وقد تشكل (حبة بغداد) اهمية قصوى لبعض البكترولوجيين الذين لديهم كامل الاستعداد لترك أماكنهم المريحة والقدوم فورا الى بغداد لدراستها، ومنذ عودة الكاتب من رحلته فان الامر يبحث هنا في اميركا بشكل جاد ومعمق .

ربما يصاب بالإحباط كل من واتته الفرصة لقراءة هذا المقال القصير ، بسبب من المراجع القليلة التي تناولت ارض بابل وارض نينوى المطمورتين تحت اديم بلاد مابين النهرين ، لكن هذا الاحباط لايقارن بإحباط شخص تجشم عناء السفر ، وكان محكوما بضيق الوقت ، لزيارة هذا المكان التاريخي المثير ، توصل الى ان الرحلة الى أطلال بابل لا تقارن من ناحية أهميتها مع نزهة الى الصقارة او زيارة الى اي من المعابد المهمة في مصر . فهي مجرد تلال من من رمال الصحراء من تلك التي أجرى عليها علماء الاثار الألمان العديد من التنقيبات ، وما كان يعرف ببرج بابل هو الان عبارة عن رمال متحركة ، هي كل ما تبقى من تلك العاصمة التاريخية ، وان زيارة (لمكة)١الشيعة المسلمين ، تعد اكثر اهمية من زيارة أطلال بابل ، فهي على صغر حجمها مقارنة بمكة الاصلية تمنح فرصة مناسبة لمعرفة هذا المحج المميز .

اما مدينة بغداد ، ربما تعد زيارة واحدة من الكنائس المسيحية في صباح يوم الأحد فرصة طيبة ، وبوصفي رحالة مهتم بمدن الشرق ، فلقد رأيت في السابق العديد من الملكات التايلنديات واليابانيات والهنديات ، اللواتي لا يمكن مقارنة ازيائهن مع جمال وأناقة لباس المسيحيات في كنائس بغداد عندما يرتدين الأزر الحريرية الثقيلة ، وهذه الأزرالجميلة التي ترتديها البغداديات تميزهن عن لباس النساء المسلمات الأخريات، بصبغتها الاكثر من رائعة بظلال شفافة من اللون الوردي والارجواني والأزرق والبنفسجي الفاتح والمحبوك بدقة على خلفيته الملونة ، حيث تشكل خيوط التطريز الذهبية والفضية ، والطيات العديدة لهذه الملابس الحريرية الثقيلة ، واجهة بهيجة وواسعة من الألوان كما شاهدتها أنا شخصيا من الاعلى ، وتحديدا من غرفة الكورال في احدى الكنائس المسيحية في بغداد ، والتي تشبه تساقط خيوط الشمس على واجهة زجاجية ملونة ، اوالمؤثرات اللونية التي ينتجها حقل الخشخاش العملاق ، والشخص الذي لديه عينان تتفحصان بدقة لا متناهية الأزياء (الفارسية) ، فان الرحلة الى بغداد بالنسبة له ، اكثر من مجدية وممتعة لمشاهدة واحدة من الاحتفالات الكنائسيه البغدادية ، من خلال التعاون النبيل لنائب القنصل الامريكي في بغداد السيد رودولف هارنر ، والمساعدة الكريمة من قبل السيد آج . بي شال في البصرة ، تمكنت من مقابلة العديد من شيوخ المنطقة ومزارعي التمور ، ومجموعة من الشباب العاملين في هذه الغابات ذات التمر الألذ مذاقا في العالم ، والذي يقطف من ضفاف الأنهر الرافدينية ، ويغلف في بومباي ويشحن الى نيويورك ، والعديد من هذه الفسائل تنمو الان في حديقة التمور التعاونية في أريزونا ، كهدية من السيد باربور لاثروب للسكان الاميركان في الجنوب الغربي القاحل ، وسيشكل نجاح زراعة النخيل في دولتنا ، حدثا تاريخيا ومقدمة لنجاحات اخرى للعديد من الفواكه والخضار الاجنبية ، ومن المؤمل ان تتوسع قائمة المنتوجات الزراعية الاميركية ، وربما سنشهد اليوم الذي نعرض فيه هنا ، افخر انواع التمور الخليجية الرقيقة والحساسة جدا لتحمل رحلتها الطويلة من ضفاف نهر دجلة .

× الخليج الفارسي في المقال الاصلي

(١) هكذا ترد في المقال

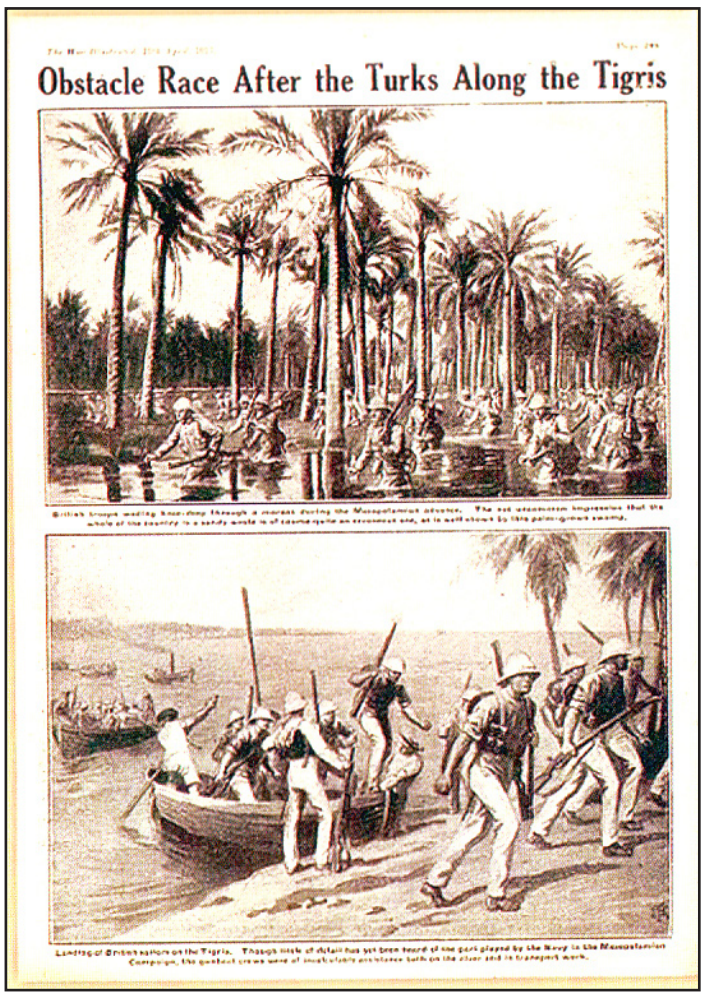

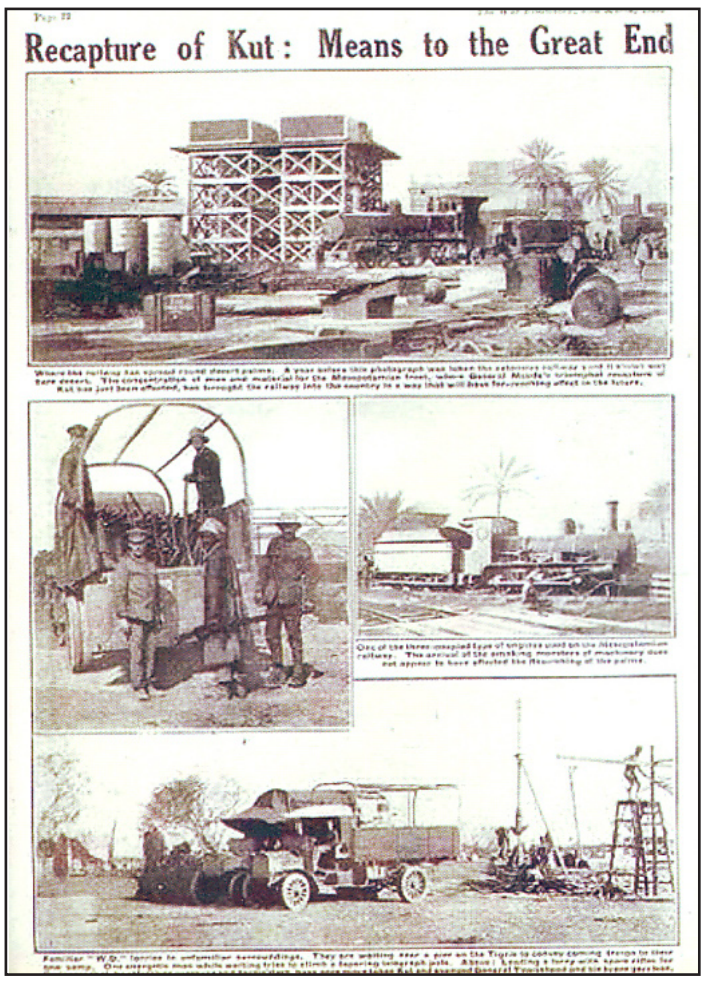

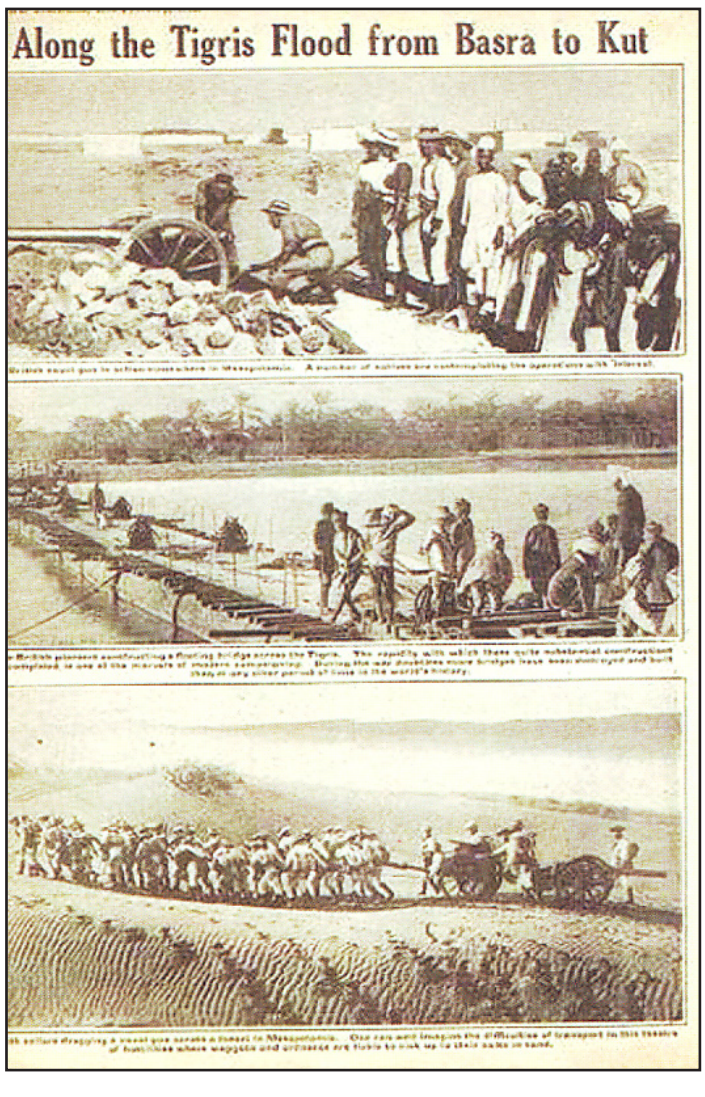

العتبات المقدسة في العهد الملكي

جعفر لبجة

يعد العراق من أبهى دول العالم بقبابه الذهبية والتحف الفنية التي تزين مراقد أهل البيت (عليهم السلام) في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء . حيث مرقد الإمام علي بن ابي طالب (عليه السلام) في النجف الاشرف وولديه الحسين والعباس (عليهما السلام) في كربلاء المقدسة، وابناء أحفاده موسى بن جعفر ومحمد بن علي الجواد (عليهما السلام) في الكاظمية، وعلي الهادي والحسن العسكري (عليهما السلام) في سامراء المقدسة التي كانت ادراتها من قبل سدنة عرفوا بالتقوى والإصلاح ، ومن أسر يشار إليها بالرفعة والمجد . ففي النجف الأشراف كان السيد عباس الكليدار ومن بعده ولده السيد حسين أبو رضوان .إما في كربلاء المقدسة فكان السيد عبد الصالح عبد الحسين للروضة الحسينية ، والسيد بدري ضياء الدين للروضة العباسية . وقد حورب الأخير من قبل النظام السابق وأبعد عن السدنة عام ١٩٧٢ وبدون وجه حق.وفيما يتعلق بالروضة الكاظمية ، فسادنها كان الشيخ علي ابن الشيخ حميد الكليدار ، ومن بعده ولده الشيخ فاضل علي حميد ، وقد توارثا السدنة عن اجدادهما من قبيلة شيبه العربية العريقة.وقد كانت العناية بالعتبات المقدسة تتم من خلال المبالغ التي تقدم من قبل رجال البر والاحسان كسلاطين إيران وسلاطين آل عثمان ، الذين كانوا يرعون العتبات بين الحين والآخر ، فضلاً عن الميسورين من العراقيين بالقدر الذي بوسعهم ونظرا لأنقطاع الصلة بالعثمانيين ، وقلة عناية الأيرانيين بالمراقد المقدسة فقد أصبح تمويل العراقيين لايساعد على الارتقاء بهذه المهمة إلى الغاية المنشودة ، لاسيما ان قدرات مديرية الأوقاف العامة المحدودة ، وهي عاجزة عن الإسهام في هذا المجال ، الأمر الذي دفع العلماء الإجلاء إلى تقديم شكواهم إلى دولة رئيس الوزراء في حينه الباشا نوري السعيد بإطلاعه على واقع الحال لإتخاذ مايراه مناسباً لحل هذه المعضلة القائمة . وفي العشرين من مايس عام ١٩٥١ توجه الباشا الراحل بنفسه صوب كربلاء المقدسة ، ومنها إلى النجف الاشرف للتحقيق بالشكاوي المذكورة المتعلقة بالخطر المحدق بهذه العتبات ، فتبين لفخامته ان الجيوب الخاصة تعجز عن القيام بمثل هذا العمل ، وان التبرعات لايمكن ان تسد الحاجة ، فأمر المهندسين المختصين باجراء الكشوفات اللازمة ، وبيان النفقات الحقيقية التي يتطلبها العمل الصحيح للمحافظة على سلامة المشاهد المقدسة ، حيث كانت نتائج الكشوفات كما هي موضحة أدناه :فلس دينار

-٢٥٧١٥ إصلاحات عامة لمرقد الإمام علي (ع)

-٨٦٣٨٨ تعمير الروضة الحسينية المقدسة في كربلاء.

-٢٦٤٨٤ بناء طرمة جديدة للروضة الحسينية المقدسة .

-٣٥٣٨٠ تعمير روضة الإمام العباس في كربلاء .

-١١٥٨٨٠ تعميرا لروضة الكاظمية المقدسة .

-١٣٤٠٩ إصلاحات عامة للروضة العسكرية المقدسة في سامراء .

- ١٧٥٠٠٠ تنوير العتبات الأخرى بالأجهزة الكهربائية كافة .

وقد تمت المصادقة على الكشوفات المذكورة حيث رأى الباشا نوري السعيد ان تتحمل ميزانية الدولة العامة هذه المبالغ ، لأن الواردات العظيمة التي يحصل عليها العراق من زوار العتبات تكون ايرادا لابأس به لهذه الميزانية ، وفي ضوء ذلك تألفت لجان معينة بهذه الأمور لتنفيذ مضامين الكشوفات اعلاه ، وبذلك أسدل الستار على هذه المعضلة من خلال ما ابداه دولة رئيس الوزراء نوري سعيد من موقف متميز استحق عليه الشكر والثناء من قبل الجميع.

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

نائب رئيس التحرير: عدنان حسين
مدير التحرير: علي حسين
هيئة التحرير: باسم عبد الحميد حمودي . رفعت عبد الرزاق
الاخراج الفني: نصير سليم التصحيح اللغوي: مروان عادل

طبعت بمطابع مؤسسة
المدى للإعلام والثقافة والفنون